ومن الحُب ما قتل

د. بشير عبد الواحد يوسف

الكتاب: ومن الحب ما قتل
المؤلف: د. بشير عبد الواحد يوسف

رقم الإيداع: ١٤٧٢٧ / ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-493-647-0
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٣

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

ومن الحُب ما قتل

رواية

د. بشير عبد الواحد يوسف

إهـداء

إلى زوجتي، أُم أولادي...

التي ضحَّت من أجلي، وسهرت على راحتي

ورَّبت أولادي، وحافظت على اسمي وبيتي.

تقديم

إنه أبي وصديقي الذي أفتخر به وبجهوده في تربيتنا وضمان مستقبلنا وراحتنا وبناء اسم عائلتنا... كان علينا أن نكافئه ولو على قدر ما قدَّمه لنا، ولكن كل إنسان وما رضع من حليب طاهر والأصابع غير متساوية كما يقول العراقيون، ولهذا تقول الحكمة: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية (وما يحل على البيت يحرم على الجامع)، وعِلمٍ يُنتفع به، وولدٍ صالحٍ يدعو له».

فأبي قوَّمنا، واِعتنى بأُمه وأبيه رحمهما الله، وضمن مستقبل أخوته وأخواته وضحَّى من أجل ذلك بالجَّهد والراحة والمال.

ترك لنا إرثًا علميًا وأدبيًا كبيرًا، واسمًا لامعًا بين الناس،، فنحن مهندسان وطبيبان ناجحان. وقبل أيام في ٢٠٢٣/٤/٢٥م؛ احتفلنا بحصول أخينا الأصغر د. سلوان على شهادة الدكتوراه في اختصاصه الطبي، ألف مبروك، والشكر لكل أحبابنا.

سرمد بشير عبد الواحد

مقدمة

قصة رومانسية من واقع الحياة. حالة إنسانية من الحُب الصادق الحقيقي والمشاعر الإنسانية الجميلة، والحياة البسيطة، وطيبة العراقيين وكرمهم... فعندما يكون الحُب نابعًا من القلب ويسري مع الدم ويعشش في العقل، فما أسهل التضحية في سبيله والجود في النفس غاية الجودِ.

الممرضة «سوسن» هذه الإنسانة البسيطة المتواضعة المقتدرة في مهنتها الإنسانية، والتي يحبها الجميع؛ تقع في حب «جلال» وهو بين الحياة والموت، فاقد للبصر بسبب إصابة بالغة في عينيه... تتعلق به الممرضة سوسن وهو لا يراها، وهي لا تعرف عنه شيئًا البتة، ومع هذا تضحي من أجله، وتترك مدينتها وأحبابها وترافقه وهو على الحمالة إلى بغداد، وتحيا هناك أيامًا عصيبة وبإمكانات محدودة، لا تملك شيئًا سوى راتبها غير المُجزي، وكل ما يهمها هو أن يعيش هذا الإنسان وأن يبصر الحياة مرةً أُخرى،

لكنها تنصدم ويهتز كيانها هزةً عنيفة حين تعلم بالصدفة أن جلال كذب عليها، وأخفى عنها شيئًا مهمًا من حياته.

ولأن حُبها لجلال نابعٌ من شغاف القلب، نقيٌّ طاهر؛ كان ردّ فعلها عنيفًا، ليس بكراهية وإنما بالتضحية.

هذه هي سوسن، تُضحِّي بنفسها وراحتها وصحتها لإسعاد الناس وراحتهم... ولهذا انسحبت من حياة جلال بهدوء إلى المجهول.

(١)

«جلال» شاب طموح مجتهد من عائلة كادحة متوسطة الحال تتكون من الأب والأُم وبنتين وجلال. الأب عامل كهرباء براتب محدود وهو المعيل الوحيد لهذه العائلة.

أكمل جلال الإعدادية بتفوق، والتحق بكلية طب جامعة البصرة وتخرَّج منها، ثم انتسب لخدمة العَلَم أيام الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثمانِ سنين متتالية احترق فيها اليابس والأخضر.

في عام ١٩٨٢؛ عام احتلال مدينة الفاو في جنوب البصرة المُطلة على الخليج العربي؛ كان جلال يعمل كطبيب ممارس في مستشفى ميداني على مصب شط العرب، وجراء القصف المكثف دُمِّر المستشفى الميداني بالكامل وقُتِل من كان فيه، ولكن جلال كان حظه أوفر.إذ وجد نفسه في خندق دفاعي وهو خائر القوى والدماء تغطي وجهه، فمسح وجهه من الدماء، ولكنه لا يرى شيئًا لأن بعض الشظايا أصابت عينيه بمقتل جراء قنبلة منفلقة تناثرت شظاياها قرب الملاجئ الشقية التي أُعدَّت على عجالة في ساحة جانبية من المستشفى.

جلال لا يرى، وهو متعب، والآلام تعصره عصرًا، ولكنه استجمع كل قواه وقدراته البدنية المتبقية وتسلل عبر

الخندق إلى نهر صغير متفرع من شط العرب يسقي البساتين المجاورة، جاهد جلال لإنقاذ نفسه وهو لا يرى شيئًا، وصوت القنابل والانفجارات قد غطى على كل شيء...

لاحظه أحد الصيادين وهو هارب بزورقه من القصف العشوائي فانتشله من الماء وغسل وجهه بماء النهر وسقاه بجرعة من الماء، ولأن حالته حرجة ويحتاج إلى إسعاف فوري لإنقاذه؛ قرر الصياد أن يسلمه إلى الجنود العراقيين في الخلفيات بعد أن عصب عينيه بقطعة قماش...

نقله الجنود على وجه السرعة إلى المستشفى الميداني في الخلفيات، وبعد أن تم فحصه من قبل الطبيب قرر إرساله فورًا بسيارة عسكرية إلى المستشفى العسكري في البصرة، لأن إصابته خطيرة وتحتاج إلى طبيب اختصاص عيون وإمكانات مستشفى كبيرة.

(٢)

الممرضة «سوسن» من أكفأ الممرضات، اهتمت بهذا الشاب وقامت على الفور بتنظيف جروحه وتعقيمها بعناية، واستدعت الطبيب المناوب الذي هدَّأ من روعهِ وحقنه بحقنة مهدئة من الآلام.

فحص الطبيب عينيه، وتأفف. اندهشت سوسن وسألته:

– ما الأمر يا دكتور؟

قال بصوت منخفض:

– لقد فقد عينيه مع الأسف، ويجب إرساله بسرعة إلى مستشفى الرشيد العسكري في بغداد، ولكنه يحتاج إلى مرافق طبي.

فقالت سوسن على الفور:

– أنا أرافقه. أرجوك ساعدني في ذلك.

تعلقت سوسن بجلال لدماثة أخلاقه ووسامته وطيبته وبساطته ورقته، وأخذت تعتني به وتداويه وهي لا تعرف أصله وفصله، مجرد تعرف أن اسمه جلال لا غير.

سوسن بعد أن توفت أُمها بسبب مرض عضال وتزوج أبوها من امرأة متسلطة تعاملها بقسوة واحتقار؛ قررت أن تلتحق بدورة ممرضات داخلية في المستشفى التعليمي في البصرة، وبعد التدريب نُقِلت إلى المستشفى العسكري،

فأبدعت في مجال عملها وأصبحت من الكفاءات المتميزة بين الممرضات، الجميع يحبونها ويحترمونها، والأطباء يعتمدون عليها لدقتها وتفانيها بالعمل ولسرعة تعلمها واتقانها المهنة، ولهذا الأطباء وإدارة المستشفى يوقِّرونها ولا يرفضون لها طلبًا.

قررت سوسن ألا تترك جلال مهما كلفها الأمر، وكأنه أخوها أو حبيبها، وطلبت من إدارة المستشفى أن ترافقه إلى بغداد، وبعد إلحاح منها؛ وافقت إدارة المستشفى أن ترافق المريض جلال إلى مستشفى الرشيد العسكري، بتوصية من مدير المستشفى الذي كان يكن لها الاحترام والتقدير منذ أن كانت تعمل معه في المستشفى صباحًا، وفي المساء في عيادتهِ الخاصة في العشار شارع الصيادلة، وكم كانت صادقة وأمينة ودقيقة في عملها، لهذا وافق على إرسالها بمأمورية مفتوحة مع المريض جلال.

وهكذا كان الأمر، نقلت سوسن المريض جلال إلى المستشفى العسكري في بغداد، وفي أوراق نقل المريض تنسيب الممرضة سوسن عبدالعال إلى مستشفى الرشيد العسكري للتدريب في قسم طب العيون.

في اليوم التالي، عُرِض المريض جلال على إخصائي العيون وكانت نتيجة الفحص صادمة لسوسن، إذ لا أمل يُرجى ولا يفيده إجراء عملية جراحية نظرًا لحجم الضرر في العينين.

لم تبتئس سوسن وحاولت مناقشة الطبيب الإخصائي بإلحاح، فأجابها بأن الطبيب «غسان عايش» سيأتي في الغد، وهو متخصص في إجراء مثل هذه العمليات المعقدة، وهو من إخواننا الصابئة.

فتذكرت أن لها فضل في إنقاذ أحدهم من أهالي بغداد أعطاها تلفونه للاتصال به عند الحاجة، فاتصلت به، فرحَّب بها، وطمأنها أن الدكتور غسان من أقربائه، وأنه سيزورها لتقديم العون لها في كل ما تريد.

نامت سوسن ليلتها مرتاحة تنتظر الصباح، وعسى ولعلَّ أمور جلال تسير بخير.

بعد الفحص والمعاينة قرر الدكتور أنه يمكن إنقاذ العين اليمنى ونسبة جيدة من العين اليسرى التي قد تحتاج إلى عملية ثانية إذا نجحت الأولى.

(٣)

أشرفت الممرضة سوسن على تحضير غرفة العمليات وتعقيمها، وتعقيم كل الأدوات الجراحية، وهي ترجو الدكتور غسان أن يبذل قصارى جهده وخبرته لإنقاذ عيون جلال.

استغرقت العملية وقتًا طويلاً، وسوسن تنظر مرةً إلى عين الدكتور التي تطمئنها، ومرةً إلى عين جلال التي تقلقها.

بعد انتهاء العملية قال الدكتور:

- لقد بذلتُ كل ما أستطيع، والأمر بيد الله، وإن شاء الله خير وبركة، أنا مطمئن من نجاح العين اليُمنى، وأتمنى أن تكون حققنا نجاحًا في العين اليُسرى، قولوا يا رب.

صاح الجميع:

- آمين، أنتَ كريم يا رب العالمين.

(٤)

بعد مُضي ثلاثة أيام على العملية؛ أمر الطبيب بفتح ضمادات العين اليُمنى أولاً.

سارعت سوسن لفتحها وتنظيفها، فمدَّ جلال يده وأمسك بيدها:

- أنتِ سوسن؟

أحسَّت بقشعريرة تسري في جسدها وبفرح غامر يملأ كيانها ويهزه هزًا، فضغطت على يده بقوة:

- نعم أنا سوسن الحمد لله والشكر.

ثم سألت الدكتور:

- وما أمر العين اليسرى يا دكتور؟

- الآن اطمأنتا على اليمنى التي ستتعافى إلى الأحسن وبعد غد سنفتح ضمادات اليسرى ونرى.

سوسن وجلال في فرحٍ غامر. فهو قد عشقها قبل أن يراها. فكيف الآن وقد رأى جمالها وطولها ورشاقتها، كل شيء فيها جميل: صوتها، أنوثتها، ذكاؤها، حيويتها، بشاشتها.

(٥)

مرَّت ثلاثة أيام، وجلال وسوسن سعيدان بما آلت إليه الأمور، ولكن ينتابهما قلق على العين اليسرى.

تمر الثلاثة أيام ثقيلة عليهما بين الفرح والقلق، وسوسن تُكثر من الدعاء والصدقات لعل الله يلطف بهما ويسعدهما بشفاء عين جلال.

اليوم موعدهما مع دكتور غسان لفتح ضمادات العين اليسرى...

يغلق الطبيب بورقة نظيفة عين جلال اليمنى ويطلب منه فتح عينه اليسرى:

- ماذا ترى يا جلال؟

- أرى نورًا.

- وبعد يا جلال؟

- لا أرى الأشياء بوضوح.

- طيب تعتبر العملية ناجحة. المطلوب لا تعرضها للضوء واستخدم هذه القطرة ست مرات في اليوم وستزال الغشاوة خلال ثلاثة أيام. إذن بعد ثلاثة أيام نلتقي هنا.

- حاضر دكتور.

سوسن قلقة ولكنها متفائلة:

- يا جلال اعتمد الآن على عينك اليمنى، ولا تخرج من غرفتك، ولا تنظر للضوء أو للتلفزيون.

بعد ثلاثة أيام من الانتظار والترقب، جاء الموعد، ورفع الدكتور الضمادات. ولكن مازالت عين جلال اليسرى ترى الصور مشوشة...

قال الدكتور:

- لا تخف، هذِهِ الغشاوة سأرفعها بجهاز الليزر الآن.

وخلال دقائق معدودة أزال الدكتور الغشاء الذي أفرزته العين جراء العملية، فتحسنت الصور أمام جلال.

وأشار الدكتور إلى تغيير نوع القطرة بنوعين آخرين كل أربع ساعات لمدة ستة أيام، وأن يحافظ جلال على عينيه من الضوء والحرارة.

(٦)

جلال مع الوقت يتحسن نظره، وسوسن تزداد تعلقًا ومحبةً بجلال الذي لا يستطيع فراقها لحظة واحدة...

بعد مرور الستة أيام؛ تسمح له إدارة المستشفى بالمغادرة. ويتم تسريحه من الجيش لأسباب صحية...

وهنا تبدأ مشكلات الحياة...

جلال وسوس غير متزوجين ولا يملكان دارًا للسكن وبنفس الوقت لا يملكان نقودًا سوى راتب سوسن المحدود جدًا، أما جلال فراتبه راتب جندي مكلف؛ بمعنى لاشيء بالحساب. تضطر سوسن للعمل مساءً في عيادة طبيب إخصائي، اما جلال فنظره مازال محدودًا لا يستطيع مزاولة أي عمل سوى ممارسة مهنة الطب التي تحتاج إلى خبرة وممارسة وجهد. المهم المستشفى تؤمِّن إلى سوسن المبيت والمأكل والمشرب، ويبقى كيف يمكن حلّْ مشكلة جلال؟

تستثمر سوسن علاقاتها الطيبة مع الأطباء وإدارة المستشفى بإكمال أوراق جلال وإصدار أمر من وزارة الصحة بتعيينه وتنسيبه في نفس المستشفى، فيحصل على مكان في قسم الأطباء ويتم حلْ مشكلة السكن والمأكل والمشرب... والآن على جلال وسوسن تجميع مبلغ من المال لغرض الزواج.

كانت البلاد تمر بظروف اقتصادية معقدة، وليس من السهولة تجميع أي مبلغ محترم، كذلك الايجارات بدأت بالارتفاع لتوقف أعمال البناء لانشغال الدولة بالحرب واستثمار كل القوى العاملة والموارد للحرب (كل شيء من أجل المعركة) وهكذا جعلوا كل موارد البلاد للمجهود الحربي.

ولكي تستمر الحياة استقبل العراق حوالي خمسة إلى سبع ملايين من أشقائنا المصريين ليسدوا العجز الحاصل في القوى العاملة في مجال الخدمات خاصةً، ولكنهم لم يخططوا لاستقبال كفاءات تحتاجها البلاد فعليًا، وإنما تُرِك الأمر عشوائيًا لكل من هبَّ ودبَّ، ولهذا جاء عدد من المهرة ولكن الغالبية العظمى لا يملكون مهارات سوى الخدمات العامة البسيطة كالحراسة أو النظافة أو بائع خضروات وفاكهة أو عامل بناء غير ماهر مع عدد من المعوقين كل طموحهم تجميع مبلغ من المال والعودة به إلى مصر لشراء دار سكن أو فتح عمل بسيط يعتاش منه، وقد خصصت الدولة لكل واحد منهم مائتي دولار في الشهر سواء كان يعمل أو لا يعمل كنوع من المساعدة على تكاليف الحياة كحماية اجتماعية لهم.

وسط هذا الزحام وظروف الحرب القاسية وعمل جلال وسوسن المجهد والذي يمتد من الصباح لساعات متأخرة من الليل ولكون سوسن تعمل في صالة العمليات وكثرة المصابين يوميًا جراء القصف العشوائي والكر والفر بين العراقيين والإيرانيين، انشغلا وغرقا في زحمة العمل

المتواصل، والذي يرى مصائب غيره تهون عليه مصيبته، لهذا أجَّلا مشروع الزواج إلى أن تنفرج الأمور بعض الشيء، ولحين أن يجمعا مبلغًا ولو بسيطًا من المال ويحصلا على أجازة ولو لعدة أيام.

(٧)

كان جلال يزور سوسن أحيانًا عندما يهدأ العمل قليلاً في صالة العمليات لدقائق معدودة، وفي إحدى هذه الزيارات تعرف أحد المرضى من أهالي البصرة على جلال أثناء نقلهِ إلى صالة العمليات لإجراء عملية جراحية له وصاح وهو على النقالة: جلال... جلال.

التفت جلال وسوسن إليه...

- جلال، أنا عباس جاركم في محلة الجمهورية.

- نعم، نعم، عباس أتذكرك جيدًا، ولكن ظروف الحرب فرَّقت الناس وأشغلتهم، كيف حالك؟

- كما ترى. أرجو مساعدتي.

- تدلل عباس.

- جلال: هل تعلم أن زوجتك تزوجت من ضابط يعمل بالإعاشة؟ والآن هي وطفلك يعيشان معه في نفس البيت بعد أن أصابها اليأس من عودتك ووصلت معلومات للمحلة تقول إنكَ اُستشهدت في معركة الفاو.

اصفر وجه جلال وتلعثم في الكلام وأراد أن يتجاوز الموضوع، فقال:

- وكيف حال أهلي؟

– طالهم القصف الإيراني، ولم يبقَ لك إلا أختك نادية الصغيرة، لا اعرف الآن أين هي.

– ولكن لماذا تزوجتْ زوجتي؟

– كما قلتُ لك إنه وصلت معلومات أنكَ اُستشهدت عند احتلال الإيرانيين الفاو وأن وحدتك سُحقت بالكامل ولم ينجو منهم أحد وأن جميع الشهداء أصبحوا ضمن الأرض المحتلة، هذا من ناحية يا جلال، ومن الناحية الأُخرى زوجتك اليتيمة مرَّتْ بأيام فقر مدقع لا تستطيع تأمين الحليب لابنها وقد عطف عليهم هذا الضابط برتبة رائد لا أتذكر اسمه وكان يمدهم بأسباب الحياة، وبعد فترة من الزمن عرض عليها الزواج فوافقت لتعيش ويعيش ولدها.

لم يُكمل عباس كلامه، فقد حان دوره لإجراء العملية لاستخراج الشظايا من جسده، ودخلت معه سوسن إلى صالة العمليات، فيما ذهب جلال إلى قسمهِ في الطرفِ الآخر من المستشفى العسكري.

(٨)

جلال في حيرةٍ من أمره بعد أن فجَّر عباس هذه القنبلة أمام سوسن، أما سوسن فهي الأُخرى في ذهول مطبق، وليس لديها كلام مع جلال لأنه غشها وكذب عليها ولم يخبرها أنه متزوج ولديه ولد وجعلها تتعلق به وتحبه وتضحي من أجله وتترك مدينتها وعملها وأمها المتزوجة من رجل غريب لا تطيقه، وكانت تنتظر قسمتها في الزواج، وإذا جلال يظهر في حياتها... ليتها لم تلتقِ به. ولم تتعرف به ولا ضحَّت من أجله كل هذه التضحيات الجِسام، ولكن الله يحبها إذ كشف لها الحقيقة وأنها لا يمكن أن تعيش مع رجل غشاش، والحمد لله انها لم ترتبط به.

في صباح اليوم الثاني وبعد ليلة ليلاء مرت على جلال وسوسن؛ قرَّر جلال أن يسافر إلى البصرة التي هجرها معظم أهلها بسبب القصف العشوائي على السكان المدنيين من المدفعية الإيرانية، ورغم محاولات الإيرانيين عبور شط العرب واحتلال البصرة من الشرق ومن الجنوب ولكن الجيش العراقي والحرس الجمهوري صدهم بقوة بعد معارك ضارية في نهر جاسم شرق شط العرب ومعارك طاحنة في الجنوب في منطقة الفاو خسر فيها الحرس الجمهوري عدة ألوية مقاتلة بسبب طبيعة الأرض وكثرة الممالح والمستنقعات

وصعوبة حركة المدرعات، كذلك خسرت القوة الجوية عددًا من طائراتها المقاتلة والقاصفة الخفيفة. ولهذا بسبب حجم الخسائر الهائل قرر الطرفان التشبث بمواقعهم وتحصينها، كذلك اقتنعت القيادة العراقية بضرورة إيقاف نزيف الخسائر وتأجيل تحرير الفاو إلى إشعار آخر، مع منع الإيرانيين من إحراز أي تقدم داخل الاراضي العراقية، وقد وعدَّ وزير الدفاع الفريق «عدنان خير الله» العراقيين وعد شرف بسرعة تحرير الفاو من الإيرانيين.

جلال في البصرة شاهد بيتهم المدمر بالكامل، لقد تساوى دارهم مع الأرض تمامًا... بكى بكاءً مُرًّا، وبعد أن هدأ وشرب قليلاً من الماء اصطحبه معارفه إلى دارهم القريبة فغسل وجهه وتناول شيئًا من الطعام. سأل عن اخته نادية فقالوا له: بعد ساعة من الزمن ستكون في حضنك يا جلال، اطمئن.

دارت بينهم أحاديث كثيرة، وأثناء ذلك دخلت الطفلة نادية؛ رقيقة ضعيفة تلبس ثوبًا بسيطًا ونعلاً قديمًا، برفقة امرأة من أقاربهم... ارتمت نادية في حضن أخيها الكبير وهي تبكي وتقبّله.

شكر جلال قريبته وبكى الاثنان، ثم قرر العودة إلى بغداد في القطار الصاعد الساعة السادسة وليس لديه من الوقت إلا ساعة زمن، فاستأجر سيارة تاكسي إلى محطة المعقل وركب القطار، وظلَّ يفكِّر طول الطريق في أن تعيش أخته نادية الصغيرة مع سوسن إلى أن يأذن الله بزواجهما.

ذهب جلال مع نادية إلى المستشفى ليسلمها إلى

سوسن، ولكنه لم يجدها وسأل هنا وهناك دون فائدة، فقرر أن يستعين بأصدقائه من الكادر الطبي لإيجاد سكن يأويه مع أخته نادية.

سأل الممرضة سلمى التي تعمل معه في نفس القسم والتي تكن لَهُ الاحترام والمحبة؛ عن سوسن، فقالت:

– أعتقد أنها أخذت أجازة وسافرت إلى البصرة.

ثم احتضنت الطفلة وقبَّلتها وقالت له:

– أنا مطلقة وأعيش وحدي في محلة تسمى الجمهورية، فدع لي نادية لأهتم بها إلى أن ترتِّب أمورك.

بعد هنيئة من الزمن قال لها:

– حلّ وقتي مقبول، وهذا مبلغ بسيط من المال أرجوك اشتري لها ملابس وكل ما تحتاج، وخذي أجازة ثلاثة أيام لترتيب الأمور.

– المهم يمكنك أن ترى نادية متى ما تحب، فبيتي في شارع الصبة المعروف والكل في الحي يعرفني لأني مولِّدة مُجازة ومعروفة باسم القابلة المأذونة سلمى المسيحية.

– طيب يا أخت سلمى، أنا أصلاً من أهل الجمهورية وأعرف كل شيء فيها، ولي أصدقاء في هذا الشارع.

تفرَّغ جلال لنفسه، وفورًا ذهب إلى قسم سوسن في المستشفى وسأل عنها زملاءها، فأكدوا له أنها حصلت على أجازة مفتوحة بدون راتب بعد إلحاح على المدير، وأنها لم تخبرهم عن وجهتها.

(٩)

سوسن اتخذت قرارها القاسي؛ داست على أحاسيسها وحبها وقست على قلبها ولم تُصغي لصوت العقل والحكمة وقررت الرحيل بعيدًا عن جلال مهما كلفها الأمر ومهما كان حجم العذاب الذي ستعيشه بدونه.

هي طاهرة نقية طيبة القلب، أحبَّت جلال بكل جوارحها ومشاعرها وأحاسيسها، وضحَّت من أجلهِ بالغالي والنفيس، كانت تريد حبًا صادقًا نقيًا مثل ماء الزلال ولكن حظها العاثر أوقعها بحب إنسان كاذب غشاش.

لقد أحبته رغم أن الأطباء أكدوا لها في بداية الأمر أن الرجل «بصير» ولا أمل في إعادة النظر إليه، ولكنها قررت أن تخدمه العمر كله وتكون له العينين اللتين فقدهما في هذه الحرب التي لا طائل منها. حرب رعناء أكلت اليابس والأخضر دون أي فائدة تُذكر للطرفين المتحاربين، تم تدمير اقتصاد البلدين ومعظم البنية التحتية وعدة ملايين من القتلى، ولم يستطيع أحد الطرفين تحقيق نصر على الآخر، لأن كثيرًا من الدول الإقليمية لها مصالح في استمرارها، وكذلك إسرائيل لأن هذه الحرب تضعف عدوين لها يُحسب لهما ألف حساب، أما الدول الكُبرى التي تصنع الأسلحة وتشتري البترول فهذه فرصتها لبيع مزيد من الأسلحة التي

خرجت من الخدمة لديها، وشراء البترول بأسعار بخسة هم يحددونها، ولهذا يجب أن تستمر مثل هذه الحروب، ولكي تستمر يعطون المعلومات التي يحصلون عليها من أقمارهم الصناعية تارةً لهذا الطرف وأخرى للطرف الآخر، ويبيعون السلاح إلى هذا الطرف والسلاح المضاد له للطرف الآخر... وهكذا.

(١٠)

جلال في حيرة من أمره، لم ينم ليلته، ومن الصباح الباكر ومع بداية الدوام الرسمي أخذ يسأل كل الأصدقاء والمعارف الذين يعرفون سوسن أو عملوا معها، وعلى مدار ثلاثة أيام لم يترك شاردة ولا واردة، وتحرك على الجميع واتصل بالبصرة لعل أحدًا من معارفهم التقى بها هناك، ولكن دون بصيص أمل، فقرر السفر إلى البصرة والتفتيش عن سوسن... وهكذا كان.

ولكنه لم يجد سوسن وكأنها فص ملح وذاب، فعاد إلى بغداد مكسور الخاطر مجروح الفؤاد. لا يعرف ماذا يعمل ولكنه لم يفقد الامل اعتقادًا منه أنها زعلت عليه بعد أن علمت من عباس أن له زوجةً وولدًا...

– يا ناس يا عالم، هذا كان قبل أن أعرفها وتعرفني، هذا من الماضي. وزوجتي قد تزوجت وهي مازالت على ذمتي وهذا قد يعرضها لمشكلات قضائية، ولكني ليس بصدد ذلك، بل إني على استعداد لطلاقها والتنازل عن ابني الوحيد لها.

كان يُحَدِّث نفسه، لا أحد يسمعه، لا تسمعه سوسن لقد قضيَّ الأمر وهاجرتْ، ولكن إلى أين؟

إذن هناك احتمالية أنها هاجرت. ولكن ليس لديها جواز سفر. فاستعان بصديق ليسأل في الجوازات، واستعان بآخر

ليسأل في المنافذ الحدودية... ولكن لم يحصل على جواب.

فوَّض أمره لله، وعاد يزاول عمله لعله يسمع خبرًا من هنا أو من هناك، وهو على تواصل مع البصرة ومع كل معارف سوسن وصديقاتها.

ظلَّ يُفكِّر... ويفكِّر... حتى أعياه التفكير. يواصل الليل بالنهار في تفكير مستمر وسؤال لا ينقطع، حتى أهمل عمله قليلاً، كما كان قليل السؤال عن ابنته نادية، ولكنه بين الحين والحين يعطي بعض النقود إلى الممرضة سلمى لإعالة ابنته.

وبسب كثرة تردده على بيت الممرضة سلمى؛ كثُر الحديث عنها في الشارع، وبدأت التأويلات وكثُر الشك وسوء الظن بين النساء أنها متزوجة بالسر وهذه ابنتها وهذا عشيقها وربما زوجها... وسلمى يصلها بعض هذا الكلام الجارح وتقول لمن تعرفه إنها تقوم بعمل إنساني وأن هذا الرجل طبيب يعمل معها في نفس المستشفى، وهو من أهل البصرة وقد مات أهله جميعًا بالقصف ولم يبقَ منهم سوى أخته هذه نادية وأنها تكفلت بتربيتها بصورة مؤقتة إلى ان يعثر على خطيبته الممرضة سوسن ويتزوجها.

هناك من يصدق وهناك من يعتقد أنه مجرد كلام مفبرك تلفقه عليهم سلمى مُضطرة؛ رغم طيبتها وخدماتها الطبية لهم.

(١١)

تذكَّر جلال أحاديثه الممتعة مع حبيبة قلبه سوسن وكيف أنها كانت تعشق مدينة «أربيل» وخصوصًا «عين كاوه» لنظافتها ودماثة أخلاق أهلها وطيبتهم، فاستعان بصديقه الدكتور «آزاد» الذي يعمل معه ويحبه حُبًّا جَمًّا، وطلب منه أن يرافقه في إجازته الدورية بالذهاب معه إلى مدينته أربيل للبحث عن سوسن.

رحَّب دكتور آزاد بالفكرة، وقال:

- يا جلال يمكنك الاعتماد عليَّ.

أخبر آزاد أهله الذين طالما حدَّثهم عن صديقه المخلص جلال، فرح والده بالضيف الكريم صديق ولده البكر، وتهيأت العائلة لاستقبال الضيف العزيز.

يوم الخميس الساعة الثانية عشر ظهرًا بعد الاستئذان من مدير المستشفى انطلقا بسيارة آزاد إلى أربيل.

جلال مندهش من جمال المناظر الخلابة والأرض الخضراء المتموجة، ثم الجبال الشاهقة والطرق الملتوية كأنها الأفعى عندما ينظر من الزجاج الخلفي للسيارة. كان منبهرًا بهذه المناظر الجميلة، وفي نفس الوقت يتمنى لو يساعده الله في العثور على سوسن عند صديقتها التي تعيش في أربيل، والتي لا يعرف عنها سوى أن اسمها

«سميرة» وأنها تملك محلاً لبيع الملابس اسمه «سيركو» في سوق «شوشه بازار». وهذه معلومات كافية للوصول إلى سميرة كما أخبره آزاد.

استقبلت عائلة آزاد ضيفهم العزيز جلال أحسن استقبال وفرحوا به وحضنه والد آزاد وقبَّله عدة قبلات وهو يقول: يا أهلاً ويا وسهلاً بالضيف الغالي صديق ولدي الحبيب آزاد، طالما حدثني عنكَ ولدي حتى ظننت إني أعرفك، يا جلال زارتنا البركة وأنتَ من اليوم ولدي وهذه عائلتك، فأرجوك أن تكون واحدًا من العائلة ولا تخجل من شيء، البيت بيتك ونحن أهلك.

فرح جلال بهذا الاستقبال الاستثنائي وبهذه الكلمات التي تدل على المحبة والأبوة والحنان.

وبعد أن استحمَّا وارتاحا قليلاً تناولا شيئًا من الطعام، ثم انطلقا يبحثان عن بيت صديقة سوسن على العنوان الذي يحفظه جلال.

بعد السؤال عدة مرات والدخول في عدد من الأزقة؛ اهتديا إلى بيت سميرة عن طريق بقال المواد الغذائية والحاجات المنزلية الذي يقع دكانه على ناصية الشارع...

طرقا جرس الباب عدة مرات دون جواب، ثم طرقا على الباب بأيديهم دون أي جواب. وهنا خرج لهما الجيران وأخبروهما أن سميرة تعمل ممرضةً في المستشفى وعادةً تعود بين الساعة الثالثة والرابعة، لتذهب بعدها إلى عيادة

الدكتور حسن إخصائي القلب في الشارع الرئيسي (شارع باتا) وسط المدينة.

اضطرا للذهاب إلى مقهى قريب لشرب الشاي، وكان آزاد يحب شرب الأركيلة فحاول جلال مجاراته وطلب أركيلة تفاح كما طلب آزاد، لكن جلال لم يقوَ على بلع الدخان فأخذ يسعل بقوة حتى كاد يختنق، فطبطب آزاد على ظهره بلطف وناوله قليلاً من الماء، وطلب منه ألا يبلع الدخان لإنه غير معتاد عليه.

عند الساعة الواحدة ظهرًا ذهبا إلى مركز أربيل لتناول الغداء بعد أن شعرا بالجوع وأن لديهما متسعًا من الوقت ما يكفي لحين عودة سميرة من المستشفى. في أحد أزقة أربيل هناك مطعم كباب أربيل المشهور بنوعية وكمية الكباب وطعم لبن أربيل (الشنينة) المشهور.

وعندما أزفت الساعة الرابعة توكلا على الله وذهبا إلى بيت سميرة... فتحت لهما الباب مستفسرة، فأجابها آزاد:

– جئنا أنا والأخ جلال خطيب صديقتكِ سوسن لمعرفة أحوالها، وهل هي عندك في زيارة؟ لأن جلال قلقٌ عليها بعد أن تركت العمل فجأة وأغلقت بيتها وسافرت في أجازة مفتوحة دون علم خطيبها. فقلنا عسى ولعلَّ أنها أتت لزيارتك، فهي كما يقول جلال تحبك وكثيرة الحديث عنك وكانت تود زيارتك.

– أولاً تفضلا بالدخول وأهلاً وسهلاً ومرحبًا... أنا يا جلال

سمعتَ عنك كثيرًا، ويكاد لا يسقط اسمك من فم سوسن لحظة واحدة حتى ظننت أنها تعبدك وليس فقط تحبك... المهم ارتاحا الآن وسأعد لكما غداءً على السريع.

– لا تتعبي نفسك، فقد تناولنا الغداء وشربنا الشاي في المطعم والحمد لله، ولكن اخبرينا الله يخليك هل سوسن عندكَ؟ وهل تعرفين شيئًا عنها؟ الله يرضى عليك طيبي خاطر جلال وريحي قلبه.

– لا والله، منذ ثلاثة أسابيع وأنا أحاول الاتصال بها دون أن ترد علي لأن تليفونها مغلق، وأنا مثلكما في قلق عليها... اعطياني أرقامكما وسأتواصل معكما إن عرفت شيئًا عنها، والله إنكم أقلقتماني على سوسن. الله يستر.

يرد عليها آزاد:

إن شاء الله خير يا أخت سميرة والغايب عذره معاه، مع السلامة.

(١٢)

يعود آزاد وجلال مكسوري الخاطر بعد تعب هذا اليوم دون أن يحصلا على شيء سوى الوعود. تنزل دمعتان حارتان من عيني جلال، فيحضنه آزاد وهو يطيب خاطره:

- لا تيأس يا أخي، فنحن في أول المشوار وسنصل إلى سوسن. من سار على الطريق وصل يا جلال. طول بالك والصبر جميل، والصبر مفتاح الفرج.

يطرق جلال وقد سرحت أفكاره بعيدًا وجرَّ حسرة من أعماق شغاف قلبه المكوي بنار حب سوسن.

في اليوم التالي فتَّشا عنها في الأسواق الشعبية فلم يجدا أي أثر يُذكر.

جلال متعب نفسيًا وجسديًا، فيقرر العودة مع آزاد في اليوم التالي إلى بغداد، لأنه شعر أنه يبحثُ عن إبرة في كومة قش.

وبالفعل، عادا صباح الأحد متوجهين إلى بغداد وجلال يقلب الأمور أخماسًا بأسداس...

وفجأة ومن على بُعد، خطفت سيارة صالون بيضاء من جانبهم بسرعة عالية يقودها شاب وتجلس بجانبه سوسن فصرخ بأعلى صوته: إنها سوسن يا آزاد أرجوك الحق بهم.

فرح آزاد وعدل من جلسته وطلب من جلال ربط حزام الامان وأنطلق بسرعة خلف السيارة.

لم يتعود آزاد السياقة بسرعة عالية في مياسم الجبال، كما أن والده حذره من السرعة العالية. ولكنهما على أي حال يتعقبان السيارة وقد حفظا رقمها... بعد نصف ساعة ظهرت علامة تدل على وجود نفق قادم لمرور سيارة واحدة مع إشارات ضوئية حمراء... يا للحظ؛ قال جلال، فاضطر آزاد ان يقف ويرمش بالضوء إلى السيارة التي أمامهم التي وقفت هي الأُخرى قريبًا من حلق النفق...

نزلا مسرعين، واقتربا من السيارة والسائق الشاب في دهشة، وتقدم جلال ودقق النظر، قبل أن يعتذر للشاب قائلاً: آسف أرجو المعذرة، يخلق من الشبه أربعين.

وهكذا ذهبت جهودهما وضاع الوقت سُدى... وعادا إلى طريق دهوك أربيل ليواصلا الطريق إلى كركوك ثم بغداد.

(١٣)

قررت سوسن أن تجتر آلامها وحظها العاثر وأن تعيش في زاوية نائية من هذه الأرض بعيدًا عن الناس قدر الإمكان، وأن تعتاش من مهنتها التي تتقنها. وهكذا قررت أن تستقر في أهوار الجنوب في ناحية «الفهود» المُطلة على هور الحمار والتي تقع بين ناحية الچبايش وقضاء سوق الشيوخ في الناصرية، والتي لاتصلها مواصلات إلا ماندر وبصعوبة بالغة.

وناحية الفهود هذه منطقة منعزلة في أطراف هور الحمار يربطها بناحية الچبايش والهور طريق ترابي عبارة عن سدة ترابية قديمة كثيرة القناطر المتهالكة والتي تُبنى من جذوع النخيل وتُغطى بالقصب والبواري (تصنع من القصب) والتراب. وعمومًا وسيلة النقل في الفهود هي المشحوف (الزورق الخشبي) الذي يُصنع محليًا بأنواع وأشكال متعددة، فمنها الطرادة التي تحمل شخصًا واحدً وتكون عادة سريعة وصغيرة نوعًا ما، والمشحوف الذي يحمل عددًا من الأفراد، وهناك البلم والجليكة وغيرها التي يستخدمها الصيادون في صيد الأسماك والطيور المهاجرة.

كانت سوسن قد تركت بغداد والألم يعصرها والدموع تفيض من عينيها والدنيا قد اسودت في وجهها وحملت

معها ما تستطيع حمله وركبت القطار النازل إلى البصرة، ومن هناك أخذت سيارة أُجرة إلى قضاء «المَدينة»، ومن هناك ركبت المركب الذي سيوصلها إلى ناحية الچبايش.

وصلت ظُهر نفس اليوم، ولكنها كانت متعبة مهمومة مكظومة. شعرت بالعطش والجوع، فسألت عن مطعم أو فندق ترتاح به من عناء السفر الطويل، فأخبروها أنه لا يوجد مطعم ولا فندق، وإنما يوجد مضيف يرتاح به الناس ويقدَّم فيه الطعام والشراب، وفي الليل المنام، يشرف عليه الشيخ «خيون» شيخ عشيرة بني أسد.

سالت أحدهم كيف يمكنها الوصول إلى الفهود، فأرشدوها إلى باص عندما يمتلئ بالركاب يتحرك إلى الفهود.

وهكذا ركبت سوسن الباص مع حاجياتها... وبعد أن قطع مسافة لا بأس بها بعد ساعة زمن وعند وصوله قرية الزوامل؛ توقف، وأخبرهم السائق أنه لا يستطيع مواصلة الرحلة لأن قنطرة الزوامل تهدمت وتحتاج إلى تصليح قد يستغرق عدة أيام، وعليهم ترك الباص وإكمال الطريق سيرًا على الاقدام.

كان بين الركاب رجلٌ وقور يرتدي الملابس العربية لأهل الجنوب، انتخى لسوسن وحمل معها شيئا من متاعها، ولكن المسافة المتبقية ليست بالقليلة، فاقترح عليها أن تبقى مع حاجاتها وسيتحرك هو إلى موقع شركة تنقيب تابعة لنفط البصرة يعرف المهندس المشرف عليها لعله يستطيع مساعدتهما.

فعلاً تحرك الرجل إلى موقع الشركة والتقى المهندس الذي رحَّب به وطلب من سائق سيارة الحمل (بيك آب) الواقفة على جانب الطريق أن يساعدهما.

صعد الرجل بجانب السائق وصعدت سوسن بجانبه بعد أن حملوا حاجاتهما، وانطلقت العجلة بهم وهي تسير بمحاذاة نهر سريع الجريان.

سألت سوسن الرجل إن كان يوجد فندق في الفهود، فأجابها:

- بيوتنا يا ابنتي كلها فنادق للضيوف، اطمئني أنا سيد عكَلة وصاحب عائلة كبيرة وتاجر معروف وصاحب مضيف وسيد ابن رسول الله. وأنتِ ضيفتي يا ابنتي، وأتشرف بضيافتك عند عائلتي، وأنتِ على الرحب والسعة، وإذا ما شالتك الأرض نشيلك بعيوننا،

ارتاحت سوسن لسيد عكَلة وكلامه الجميل، ولكنها قلقة وخائفة.

وصلوا أخيرًا إلى الفهود، ولكنهم على الجانب الآخر من النهر السريع الجريان والذي يرعد ويزبد. توقفت السيارة ونزل سيد عكَلة وسوسن وأنزلا حاجاتهما وودَّعا السائق، وهنا نادى سيد عكَلة بأعلى صوته على رزاق صاحب الزورق الذي يعبر به الناس من هذا الصوب إلى صوب الفهود، وفعلاً تحرك رزاق الذي يستعين بسلك فولاذي قوي يربط الصوبين لكي لا يجرف جريان الماء السريع الزورق ولا يغرقه بسبب

كثرة السويرات (دوران الماء)في النهر، تمكن رزاق من نقل سوسن وسيد عكّلة وحاجاتهما إلى طرف ناحية الفهود وساعدهما في حملها إلى مضيف سيد عكّلة الذي يقع على حافة الهور في طرف المدينة.

(١٤)

استقبلتها عائلة السيد عكّلة استقبالاً جميلاً ورحبوا بها، وقدَّم لها زوجتيه الاثنتين وابنته المعلمة «راوية» التي تعلم في مدرسة الفهود الابتدائية، والتي رافقت سوسن إلى غرفتها وأخذتها إلى الحمام، وقدمت لها شيئًا من اللبن والتمر دلالة الترحيب بالضيف، وتحركت النسوة لإعداد الطعام.

شعرت سوسن أنها في أمان وهي بين أهلها وأحبابها، وأن الرحلة انتهت إلى خير حتى ولو كانت في بدايتها، وأن عائلة السيد عكّلة عائلة عراقية أصيلة وطيبة وكريمة.

وما هي إلا ساعة زمن وتجمعت العائلة الكبيرة حول سفرة الطعام التي أدهشت سوسن سعتها وكثرة الطعام من سمك ودجاج وما لذ وطاب، وأدهشها أكثر خُبز التنور العراقي والسمك المسكوف في التنور ووفرة اللبن والخضروات.

وعند المساء واعتدال الطقس؛ خرجت سوسن برفقة ابنتهم المعلمة راوية للتجوال على حافة الهور حيث الهواء المنعش والمناظر الطبيعية الخلابة ومحبة الناس واحترامهم وتقديرهم لراوية المعلمة وضيفتها الغالية. ولكن ما أن نزلت الشمس بقرصها الأحمر نحو الأُفق آفلةً للغروب، فقالت راوية لسوسن:

– لنعد إلى البيت، وغدًا صباحًا سأُريكِ جمال الطبيعة هنا وخيرات الله.

لاحظت سوسن مقدار الاحترام للمعلمة راوية من الناس فاستغربت وسألتها:

– ماذا قدَّمتِ للناس يا راوية ليقابلوكِ بكل هذا التقدير والاحترام؟

فأجابتها:

– إن للمعلم هنا في الأرياف منزلة كبيرة وتقدير عالٍ، حتى أنا عندما كنت طالبة اعتبر معلمتي مَثَلَي الأعلى في الحياة أتعلم منها كل شيء: الأخلاق والعادات والتقاليد، وحتى اللبس وحسن التصرف. وعندنا هنا طبع نستشير المعلم في أمور الحياة ونستفاد من خبرته وعلمه ودرايته، حتى أن والدي عندما يجلس في المضيف يُجلِس المعلم بجانبه احترامًا وتوقيرًا، أما سمعتِ الحكمة: (من علمني حرفا ملكني عبدًا) وأمير الشعر أحمد شوقي أنشد:

قمْ للمعلم ووفقه التبجيلا كاد المعلم ان يكون رسولا

قالت سوسن:

– صدقتِ يا راوية. والآن إلى البيت أحس بالتعب بعد هذا المشوار الطويل بالسفر.

(١٥)

أثناء عودتهما للبيت تنظر سوسن إلى مضيف سيد عكّلة وقد امتلأ بالضيوف وتسمع رنة الهاون وتشم رائحة الهيل وتسمع الطرب العراقي الأصيل الشجن العراقي لأهل الجنوب بمواويله الجميلة التي تدل على قوة التعبير وجزالة اللفظ وعمق المعنى...

تقول لها راوية:

-في هذا المضيف يتم حلّ كل القضايا الاجتماعية والخلافات إن وجدت، مهما كان نوعها وشكلها. وللمضيف حُرمة، وكذلك للسيد عكّلة، وصوته مسموع ورأيه محترم. ولا تنسِ أن هناك مضيف الشيخ ولكن للسيد وزنه واحترامه.

في غرفة راوية تجلسان تتسامران، ولكن سوسن متعبة تتثاءب وتستأذن في الذهاب لغرفتها لتنام...

- كيف تنامين؟ والعشاء؟

- لا أشعر بجوع يا راوية.

- ولكن أهلي سيوبخونني إن تركتكِ تنامين بدون عشاء، أمهليني دقائق وسآتي بما قسم الله.

تذهب مسرعة وتأتي بصينية كبيرة حملتها معها أمها، فيها من أنواع الطعام الفاخر ما يكفي لخمسة أو ستة أشخاص.

– ما هذا يا راوية؟ كفاية عليَّ قليل من اللبن.

– كُلي، كُلي. هذا عشاؤنا كل يوم، وأنتِ ضيفة عزيزة علينا.

تأكل سوسن شيئًا قليلاً من الطعام.

تقول لها راوية:

– تصبحين على خير. سوف أُوقظك في الصباح عند صياح الديك.

تدخل سوسن إلى فراشها الوثير من الريش الناعم من الطيور المهاجرة تعط منه رائحة المسك والعنبر والسعد والخضيرة... تقلِّب الأمور وتعيد الذكريات وتقيِّم هجرتها هذه وهروبها من واقعها انتقامًا لكرامتها وعزة نفسها، وتقدِّر حجم التضحيات التي قدَّمتها عن طيب خاطر إلى جلال، ولماذا خدعها وكذب عليها وهي التي ضحَّت بكل شيء من أجل إنقاذه وسهرت على راحته وأحبته بكل إخلاصٍ وتفانٍ... معقول يكون هذا جزاؤها...

في زحمة هذه الأفكار يغلبها النعاس فتنام.

(١٦)

في صباح اليوم التالي، وعندما تسللت خيوط الشمس من خلال الشباك؛ كانت سوسن مستيقظة على صوت صياح الديكة ورغاء البقر والجاموس وأصوات الصيادين وهدير الماء...

سمعتْ طرقًا خفيفًا على باب غرفتها فنهضت لتفتح الباب، وإذا راوية في وجهها:

– ضروري نخرج قبل الإفطار وقبل أن تشتد حرارة الشمس لنرى الصيادين وخيرات الهور وجماله.

انبهرت سوسن بكميات الأسماك المكدسة على حافة الهور وكأنها التلال وأعداد الطيور المربوطة أرجلها معًا بأعداد لاتُعد ولا تُحصى، ولاحظت تجار السمك والطيور القادمين من بغداد والبصرة والعمارة والناصرية وبقية المحافظات لشرائها بالجملة ومن ثم نقلها وبيعها بأضعاف سعر الجملة.

اقتربت سوسن ومعها راوية من أحد تلال السمك وأعجبتها سمكة قطان كبيرة نوعًا ما كبيرة واشارت لها، فهم دلال مزاد السمك فرمى لهن ثلاث سمكات كبيرات واحدة قطان والثانية بني والثالثة شبوط، وهي أرقى وأغلى الأنواع، وقال:

– هذه هدية لضيفتنا. سلامي لسيد عكَلة.

فرحت سوسن بالهدية رغم حزنها الشديد على فراق حبيبها جلال.

عادت سوسن وراوية إلى الدار فوجدا أم راوية قد أعدَّت لهم إفطارًا شهيًا من القيمر والزبدة والرغفان (خبز طحين الرز) وكمية من بيض الطيور والدجاج منه المسلوق ومنه المقلي، وهناك اللبن والحليب والجبن المحلي والجاي المهيل المخدر على الحطب ذو النكهة المحببة للجميع.

(١٧)

بعد مرور ثلاثة أيام على ضيافة سوسن في بيت سيد عكّلة، قالت لها راوية:

- يا سوسن نحن أختان، وربَّ أخٍ لك لم تلده أمك، والله شاهد على ما أقول، وقد انقضت ثلاثة أيام على ضيافتك وأصبح من حقي أن أسألك عن حقيقة أمرك، وأرجوكِ أن تُصدقيني القول.

تنهدت سوسن وسحبت نفسًا عميقًا، ونزلت دمعتان على خديها فتركت أثرًا، وبصوت متهدج مبحوح قالت:

- اسمعي يا أخت راوية، أنا اسمي سوسن محمود عبدالعال من أهالي البصرة، كنت أعمل ممرضة في صالة العمليات الكبرى في المستشفى العسكري وكان أطباء الاختصاص يعتمدون كثيرًا على كفاءتي وخبرتي ودقتي بالعمل. وفي أحد الأيام سلمتنا سيارة عسكرية نوع واز رجلاً مصابًا إصابة خطيرة في عينيه وقد عصبوهما والدماء تغطي وجهه، وعندما فحصه الطبيب المناوب ارتعب من شدة الإصابة، ولكني بادرتُ إلى تنظيف عينيه وتعقيمها وتضميدهما بالضمادات الطبية المعقمة، وداويت الجروح التي على وجهه ومسحت من عليه الدماء، واعتنيتُ به غاية الاعتناء، وبذلتُ جهودًا استثنائية لتخفيف حرارة جسمه

وحقنته بمضادات حيوية بعد استشارة الطبيب، وسهرتُ طوال الليل عند سريره أراقب ضغطه وحرارته وتنفسه. وكان هناك سِرٌّ خفي لأ اعرفه دفعني لكل هذه العناية الفائقة بهذا المريض رغم كثرة المصابين، لقد تعاطفت معه كثيرًا ولا أعرف لماذا أحببته من أول نظرة، رغم أنه لا يرى شيئًا البتة، ولم يكن بيننا ما يُسمى لغة العيون.

تنهدت سوسن ثم أكملت:

- أنا يا أخت راوية كان بودي أن أفديه بروحي، ولو طلب الطبيب الجرَّاح مني ساعتها إن أهبه إحدى عينيَّ ليرى لما ترددت لحظة واحدة. والله يا أُختي أصبحتُ له عيونه وبذلت جهودًا لأقنع الأطباء بعمل أي شيء لإنقاذه، ولولا معارفي وخبرتي وتضحيتي لما أبصر النور ثانيةً، ولو أن الشافي هو الله جل جلاله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

سكتت لبرهة، ثم استرسلت:

- لقد صُدِمتُ يا راوية عندما علمت بطريق الصدفة أن هناك أمرًا جللاً قد خبَّأه عني متعمدًا، لقد طعنني طعنة نجلاء عندما عرفتُ من أحد المرضى من معارفه أنه متزوج وعنده ولد، وتركني أذوب في حبه وأضحي بمستقبلي وبأهلي ومعارفي وأترك الدنيا بما فيها وأرافقه إلى بغداد لأعتني به، وأعيش المعاناة التي عاشها، وأبذل الغالي والنفيس في سبيل شفائه وإسعاده وتذليل كل مشاكله، حتى دمجت شخصيتي في شخصيته وجعلت حياتي جزءًا من حياته ومنَّيت نفسي بآمال عراض وبنيت في الهواء عائلةً ومستقبلاً زاهرًا. وكان

كل هذا هواء في شبك، لأن كل هذا يا راوية تم بناؤه على كذبة كذبها جلال على الساذجة سوسن. فقدِّري حجم المأساة وحجم الألم الذي يعصرني ويدمرني من داخلي، أكاد أجنُّ من كثرة التفكير، ولهذا هربتُ من واقعي ومن مأساتي وجئت إلى المجهول ولا اعرف مصيري ماذا سيكون؟ ونظرة الناس لي وقناعتكِ أنتِ وغيرك بهذا الكلام العجيب الغريب كيف تُفسَّر وكيف تُصدَّق. وأنا، أنا كيف سأُرتِّب أمور حياتي ومعيشتي، الله أعلم، وهو علام الغيوب.

تتعاطف راوية معها، وتخفف عنها قائلة:

– اِطمئني يا أُختي سوسن، فأنا والله أُصدقكِ وأتعاطف معكِ ولن أتخلى عنكِ أبدًا، وسأُقدِّم لكِ كل عون ومساعدة. وبإمكانكِ أن تعملي في المستوصف مع دكتور منير، وهو من أخوتنا المسيحين ومتزوج من دكتورة اسمها نيفين تعيش في بغداد وتأتي أحيانًا معه عدة أيام عندما تكون مجازة... ودكتور منير يبحث عن ممرضة ماهرة تساعده في مهامه في عيادته الخاصة في سوق الشيوخ القريبة من الفهود. وعمومًا الدكتور لديه سيارة خاصة يذهب إلى عيادته يوميًا ما عدا الجمعة والعُطل الرسمية الساعة الثالثة مساءً ويعود في الساعة السابعة وأحيانًا في الثامنة، والمهم أنه إنسان طيب وعلى خُلق رفيع، والكل يحبونه ويحترمونه.

– المشكلة يا راوية أني لا أريد أن يعرفني الناس لكي لا يهتدي جلال إلى مكاني هذا، ولهذا أفكِّر في أن أستأجر هنا

بيتًا بسيطًا للسكن، وفي نفس الوقت أُعالج به أهل الفهود كممرضة ماهرة لديها خبرة كبيرة في تضميد الجروح وإعطاء الحقن، وعندي اجازة قابلة مأذونة، وأعتقد مردود هذه المهنة يكفيني لمصاريف المعيشة ودفع الإيجار. هذا بالنسبة لي كما أرى أستر وأضمن.

(١٨)

تنقل راوية ما دار بينها وبين سوسن لأبيها ورغبتها في أن يكون لها دار سكن وبنفس الوقت عيادة بسيطة كقابلة مأذونة ولعلاج الحالات الطارئة.

رحَّب سيد عكَلة بالفكرة، ولأنه أحب سوسن كثيرًا فقال لابنته:

- أعطِها الدار الصغيرة المخصصة للضيوف، ويمكن استقبال الضيوف في المضيف لحين ما نبني بيتًا آخر قُرب بيتنا، فالخير كثير والحمد لله، والأرض واسعة، وسوسن تستاهل كل خير. اعتبرِها أُختك، فأنتِ ابنتي الوحيدة.

بشَّرتْ راوية سوسن، وطلبت منها أن يرتِّبا البيت، وهو بيتٌ صغير، عبارة عن غرفتي نوم وهول ومطبخ وحمام.

فرحت سوسن، وقالت لها:

- رحمة، ولكن اسألي عمي السيد كم أدفع إيجارًا؟

ردَّتْ عليها راوية بعصبية:

- عيب يا سوسن، أنتِ أُختي، وسيد عكَلة أبونا، وأنا لا أجرؤ أن أقول له مثل هذا الكلام لأنه سيوبخني، فهل ترضين هذا؟

تسكت سوسن على مضض وتبدأ في ترتيب البيت:

– هذه الغرفة نخصِّصها للنوم، وهذه الغرفة للولادة عند الطوارئ ويجب أن تكون دائمًا معقمة، ويمكن أن نستعين بدكتور منير لشراء بعض اللوازم المهمة وأن نؤكد عليه ألا يذكر أي سيرة عن سوسن.

– طيب يا أُختي، أنتِ هنا قد غيَّرتِ هيئتك بلبس العباءة والملابس الطويلة المحتشمة؛ يعني ملابس الريف؛ تبقى أن نُغيِّر الاسم وينتهي كل شيء.

– لا يا أُختي راوية، اسم سوسن غالي عندي، وقد أحبَّني جلال وأحببته بهذا الاسم، وأريد أن يتذكرني باسمي هذا.

(١٩)

انتقلت سوسن إلى بيتها الجديد، وحاولت أن تعتمد على نفسها، ولكن أهل راوية يحبون أن تأكل معهم كأحد أفراد العائلة، وهي تحب أن تعتمد على نفسها في حياتها الخاصة، ولو بالتدريج، والزمن قادر على حلّ كثير من الأمور.

ذكَّرها هذا بحكمة حكاها لها جلال: أن أحد الشيوخ جاءت له ابنته الصغيرة تشكو أختها الكبيرة أنها عكَّرت عليها عين الماء الصافية التي كانت تمشِّط شعرها عليها حيث ألقت حجرًا عمدًا فيها، وأنها تريد منه ومن أخيها إعادتها إلى صفائها حالاً لتكمل نسل شعرها الطويل... ضحك الشيخ الحكيم وقال لها: يا ابنتي، لا أنا ولا أخوك ولا العشيرة كلها لو اجتمعت؛ نستطيع أن نُعيد عين الماء إلى صفائها الآن، وإنما يا ابنتي الزمن وحده قادر على ذلك. نحتاج بعض الوقت والزمن سيحل لكِ هذه المشكلة دون أي جهد أو تعب. تعلمي يا ابنتي أن العقل بالصبر، والصبر مفتاح الفرج.

- إن شاء الله خير، وليس أمامي غير الصبر لأرى ما كتب لي الله.

تزاول سوسن عملها ودكتور منير يشجعها ويحيل لها مرضى للتداوي والضماد. وكذلك راوية تبث لها الدعاية بين المعلمات والطالبات. وسيد عكَلة في مضيفه يمدح

بكفاءتها وخبرتها. وكذلك المرضى لذين يزورون العيادة ويتم شفاؤهم بسرعة.

ومع الوقت ذاع صيتها في القُرى المجاورة، وكثير من مراجعي دكتور منير تحولوا إليها، ولكنها كانت تستشيره خاصةً في العمليات الصغرى وفي الولادة، وتشجِّع المراجعين على مراجعته في أمور طبية كثيرة.

حاول دكتور منير إقناعها بالعمل معه في عيادته في سوق الشيخ، ولكنها كانت ترفض. كما حاول إقناعها بإعادة توظيفها في صحة الناصرية من خلال معارفه، ولكنها أيضًا كانت ترفض وبإصرار.

كانت قد بدأت ترتاح في حياتها هذه وهي تساعد الناس مقابل مبالغ بسيطة جدًا وأحيانًا لا تأخذ من ضعفاء الحال. ودكتور منير وزوجته نيفين يقدِّمان لها المساعدة، ويعطيانها كثيرًا من الأدوية المجانية التي توزعها شركات الأدوية مجانًا للدعاية، وسوسن بدورها تعطيها للمراجعين بدون أي ثمن يُذكر، وخاصةً أدوية الأمراض المزمنة والبلهارسيا والتيفويد المنتشر في القُرى والأرياف.

وبدأت أخبارها تنتقل من قرية إلى قرية، وخاصةً في الولادات المتعسرة، ووصلت أخبارها إلى قضاء سوق الشيوخ والچبايش، وعبرت الهور إلى قضاء المْدَينة والقرنة والشرش في البصرة.

كانت تحث المراجعين الذين تزايدت أعدادهم، على ضرورة مراجعة دكتور منير لأنها ليس لها صلاحية كتابة الأدوية، ولكن الناس أحبوها لدقتها وإنسانيتها وهي لا تأخذ من المريض إلا الشيء القليل جدًا من المال ولا تأخذ من الطلاب أو من الفلاحين البسطاء الذين لا يملكون شيئًا ولكنهم يكافئونها بالهدايا العينية مثل البيض والدجاج والحليب والسمنة والخضروات التي يزرعونها وفي موسم الحصاد بالحنطة والشعير والتمن العنبر (أرقى أنواع الرز ذو الرائحة الزكية)، وهذا كله تعطيه إلى بيت سيد عكّلة لأنها تأكل معهم.

(٢٠)

احتاجت سوسن إلى عاملة تساعدها في أعمال العيادة، فقالت لها راوية:

– أنا دوامي في المدرسة من الساعة الثامنة صباحًا لغاية الساعة الثانية عشر ظهرًا، بعدها أعود للبيت لا شغلة ولا مشغلة، أقترح عليكِ أن أعمل معكِ وأتعلم منكِ، ونستعين بعاملة المدرسة واسمها چكّارة (سكارة) لأغراض التنظيف والخدمة مقابل مبلغ زهيد، وهو بنفس الوقت مساعدة لها فهي أرملة ويتيمة ولا تلد وامرأة طيبة وفقيرة وعمرها بحدود أربعين سنة حسب تقديري.

وافقت سوسن على الفور وشكرت راوية كثيرًا.

وهكذا بدأت راوية في العمل معها في العيادة.

وذات يوم قالت لها سوسن:

– أرجوك أخبري المرضى بضرورة مراجعة دكتور منير، وأفهميهم أنه مرجعنا وأستاذنا، ونحن نستشيره في كل صغيرة وكبيرة.

– يا أُختي سوسن الناس عينها ميزانها، وهم عندهم عقول ويقدِّرون. أنا شخصيًا لو أصابني شيء بسيط لا سمح الله أفضِّل المراجعة عندك لكفائتك وإنسانيتك وحُسن معاملتك ومتابعتك للمريض مقابل شيء بسيط من الفلوس

يقدر عليها المريض بيسر وسهولة، ولا تنسِ أن دكتور منير إنسان طيب ومن عائلة محترمة وهو يحبنا ويتمنى الخير لنا ويفرح لفرحنا وهو صديق حميم لأبي، وكذلك زوجته تحبنا وتتمنى لنا الخير، وهو يحاول الانتقال إلى بغداد ليفتح هناك عيادة تخصصية مع زوجته، وعدة مرات فاتحني في أن أعرض عليكِ العمل معه.

– يا راوية أنا مازالت أفكاري متضاربة ونفسيتي تعبانة وفي داخلي جرح عميق، لقد هربت من بغداد وهربت من الحياة وجئت هنا اجتر ذكرياتي وأعيش مأساتي، أنا لا أبحث عن عمل ولا أبحث عن حُب جديد، ورغبتي في الحياة محدودة، ولولا أن الانتحار حرام لانتحرتُ وتخلصتُ من كل هذا العذاب والمعاناة التي أعيشها، ولكن الحمد لله أني أعيش بين ناس أحبهم ويحبونني، وسبحانه أهداني أختًا اسمها راوية تخفِّف عني وحدتي. أنا يا راوية أعمل لأعيش ولأفيد الناس، ولا أريد أن أكون عالة على أحد، وأنتِ تلاحظين أني لا أتقاضى عن خدماتي للمرضى سوى شيء بسيط وأحيانًا كثيرة مجانًا، وبفضلكم كل شيء متوفر وقد أغرقتموني بكرمكم، فأرجوكِ لا تذكِّريني بمأساتي، ولا تثيري بي المواجع. الحمد لله أني وجدتُ لي أهلاً وأختًا وسكنًا وعملاً، وهذا حاليًا يكفيني، وأشكر الله على نعمته هذه.

تقول لها راوية في محاولة لتغيير الموضوع:

– الجمعة القادمة تنظم المدرسة رحلة إلى مدينة البصرة بعد تطوير كورنيش شط العرب وتطوير مقتربات جسر خالد

وفي النية تبديل اسمه إلى جسر علي بن أبي طالب، ولا أعرف الأسباب لتبديل الاسم، فخالد أسماه الرسول الكريم (ص) سيف الله المسلول، ويمكن بناء جسر آخر يسمونه جسر الإمام علي مثلاً، المهم زيارة البصرة والإطلاع على معالمها الجميلة.

– أرجو أن تعذريني يا راوية، فأنا مازلتُ متعبة نفسيًا. دعيها مرةً أُخرى أرجوكِ.

– طيب مازال أمامنا عدة أيام نفكِّر ونقرِّر.

(٢١)

كل مساء تلتقي راوية مع سوسن تتجاذبان أطراف الحديث وهما تتمشيان على ساحل الهور تستمعان إلى أغاني الصيادين وتنظران إلى الزوارق وهي تتهادى في مياه الهور، وإلى أسراب البط والوز وهي عائدة إلى بيوتها وقد حفظت طريقها، وإلى أعداد البقر والجاموس التي تعود إلى زرائبها دون دليل أو مرشد... وعند غياب الشمس تجلسان بجانب المضيف الذي اكتظ بالرجال تسمعان رنة الهاون ورائحة الهيل، وتنصتان إلى حكايات الحكواتي (القصخون) الذي يحكي قصة فيها حكمة وملحه وموعظة من تجارب الحياة، فإن أعجبتهما القصة سمعاها بالتمام والكمال، وإن لم تعجبهما انسحبا بهدوء.

ويبدو أن القصة هذا اليوم جميلة، لأن القصخون معروف بحكاياته الجميلة، ولأنه يجيد تمثيل الدور مع الحكاية، ولكون صوته جهوري...

حكايتنا اليوم يا سادة يا كرام عن عائلة فلاحية تعيش في قرية نائية على الحدود العراقية الإيرانية قرب جسر غزيلات بجانب هور السناف الذي يصب فيه نهر المشرح المتفرع من نهر دجلة، العائلة تتكون من الأب والأم واثنتين من البنات الشابات الجميلات، واثنين من الشباب الأشداء...

المزرعة فيها خيرٌ من الله من الزرع والضرع، وكل يوم جمعة يأخذ الأب والأُم وولدهم الصغير البيض والزبدة والجبن وعدد من الديكة والوز إلى سوق المدينة على ثلاثة حمير لبيعها وشراء ما يحتاجون من شاي وسكر وأحيانًا ملابس، ويتركون ولدهم الكبير للحراسة مع أُختيه.

ولدهم هذا فارس مغوار، يملك حصانًا وبندقية أوتوماتيك من النوع الجيد. سمع الولد وهو يجوب المزرعة على حصانه صوت غرباء في أطراف المزرعة، فسارع للاقتراب منهم، وكان عددهم ثلاثة رجال. عمَّر بندقيته الأوتوماتيك وشهرها عليهم واضعًا إصبعه على الزناد:

- ماذا تريدون؟

- نريد أن نشرب الماء.

- نحن نشرب من هذه الساقية فاشربوا منها.

- ألا تضيفنا أيها الشاب؟

- أهلي ليس هنا، وأنا مكلف بالحراسة. اشربوا الماء وارحلوا.

لاحظ الشاب أن أحد هؤلاء يلبس ساعة ذهبية جميلة أعجبته.

قال أحدهم للشاب:

- هل تبيع لنا هذه البندقية ونعطيك ما تطلب منا؟

- هل تبيعون هذه الساعة الجميلة؟

– نعم نعطيك إياها، وهي ساعة ذهبية نادرة، وتعطينا هذه البندقية عوضًا عنها.

– ولكن ليس الآن. عندما يأتي أهلي وآخذ موافقتهم سنتفق إن شاء الله،

بعد إلحاح الضيوف على الشاب ومحاولتهم التقرب منه، ابتعد عنهم وصوَّب بندقيته نحوهم وطلب منهم الخروج فورًا من المزرعة وإلا نادى على إخوانه المسلحين في البيت.

ظنَّ هؤلاء أن الشاب جاد، وأن عائلته كبيرة العدد ومتهيئين لكل طارئ، فآثروا الابتعاد عنه بعد أن زجرهم.

وبعد ساعة زمن عاد أهل الشاب وقد باعوا ما أخذوه معهم واشتروا ما يحتاجون، فاستقبلهم ابنهم. وبعد أن ارتاحوا قليلاً حكى لهم ما كان بينه وبين الضيوف غير مرحب بهم والذين تسللوا عبر الحدود من إيران.

فرح الأب وقبَّل ولده وقال له:

– أحسنتَ التصرف يا ولدي، فلو أغرتك هذه الساعة وأعطيتهم سلاحك؛ لكتفوك واغتصبوا أُختيك أمامك وسرقوا حلالك، وتبقى أنتَ كلما نظرتَ إلى هذه الساعة المشؤومة؛ تتذكر حجم المأساة التي سبَّبتها لعائلتك بسبب سوء تصرفك وقلة حيلتك... أنتَ يا ولدي شهم ويُعتمد عليك، فبارك الله فيك.

(٢٢)

استهوت الحكايات سوسن وراوية... وفي مساء اليوم التالي، وبعد أن تمشيتا على حافة الهور وعندما خيَّم الظلام على وجه مياه الهور واكتظ المضيف بالضيوف؛ بدأ القصون بحكاياته الملحة، وسوسن وراوية بجانب المضيف يسترقان السمع.

قال الحكواتي:

اليوم أحكي لكم حكمة للإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين...

الخليفة علي بن أبي طالب؛ رابع الخلفاء الراشدين؛ كان شجاعًا وشاعرًا وأديبًا وحكيمًا، قيلَ أنه قبل أن يغتاله الفارسي ابن ملجم سأل أصحابه: اسألوني قبل أن تفقدوني، فسأله أحدهم: يا أمير المؤمنين من هو أقوى الأقوياء بعد الله سبحانه؟!

فردَّ عليه أبو الحسن: وأنت ماذا تقول أيها الأعرابي؟

قال: أنا أقول الجبل لأنه من الرواسي لا تهزه ريح ولا تحركه قوة.

قال أبو الحسن: لا، لأن الحديد أقوى من الجبل لأنه ينبشه، قال الأعرابي صدقت.

فأجابه: لا، أن النار أقوى من الحديد فهي تصهره.

قال الأعرابي: صدقت يا أمير المؤمنين.
قال أبو الحسن: لا، أن الماء أقوى من النار لأنها تطفئها.
قال الأعرابي: صدقت.
قال أبو الحسن: لا، لأن الهواء أقوى من الماء لأنه يحمله بخارًا وينزله مطرًا.
قال الأعرابي: صدقت.
قال أبو الحسن: لا، لأن الإنسان أقوى من الهواء فهو يستنشقه ويسخره فتدور به الطواحين وتسير به السُفُن.
قال الأعرابي: صدقت.
قال أبو الحسن: لا، لأن المسكر (الكحول) أقوى من الإنسان فإن شربه يفقد صوابه.
قال الأعرابي: صدقت.
قال أبو الحسن: لا، النوم أقوى من الإنسان، لأنه لو نام سيصحو متيقظًا وقد طار المسكر.
قال الأعرابي: صدقت يا أمير المؤمنين، النوم سلطان.
قال أبو الحسن: لا، الهَمْ أقوى من النوم، لأن الإنسان المهموم لا ينام.
فاعلم أيها الأعرابي أن الهَمْ هو أقوى الأقوياء.
فقال الأعرابي: صدقت ثم صدقت ثم صدقت.

(٢٣)

استهوت الحكايات سوسن وراوية ولليوم الثالث على التولي وعند الغروب تأتيان خلف المضيف تسترقان السمع وتتمتعان بحكاوي الحكواتي... واليوم قصخون جديد وحكاية جديدة:

اليوم حكايتنا لها معنى: (الاسم والمال)، ولأن فيها عبرة وموعظة أحببتُ أن أحكيها لكم:

حاتم تاجر من تجار البصرة المعروفين، صادق أمين موضع ثقة واضح وصريح يحبه ويحترمه كل التجار، له ولدان مرداس وفارس يعملان معه في التجارة. هرم الرجل وخارت قواه وداهمه المرض اللعين، فكر وقرر أن يقسمَ ما يملك على أولاده بالتراضي والاتفاق...

قال: يا أولادي الأعزاء اسمعوني وأطيعوني.

فردًّا عليه بصوت واحد: أمرك مطاع.

قال: أحببت أن أقسم بينكما ما أملك في حياتي لكي لا تختلفان بعد مماتي.

وبعد هنيئة من الصمت، قال الرجل: أحدكما له المال والثاني له الاسم، فليختر أولاً الكبير مرداس.

فاختار مرداس المال، وتحصيل حاصل أصبح لفارس اسم أبيه.

قال الأب: يا فارس، أصبح لك اسمي، فبيتي ومضيفي ومتجري لك وأنا مطمئن أنك ستحافظ على اسمي.

ثم لفظ أنفاسه ومات وعيونه شاخصة بعيون ولديه يرجوهما أن يكونا أوفياء للعهد.

أخذ مرداس كل المال، وهاجر إلى بلاد بعيدة لا يعرفها فارس، فارس فتح أبواب مضيف أبيه وبيته مثلما كان أبوه وأحسن وفتح المتجر واستعان بالتجار أصدقاء أبيه وخلال مدة وجيزه أعاد كل شئ وطوره ووسع تجارة أبيه، فارس اسم على مسمى، تزوج ورزقه الله بأولاد وبنات وغدى من التجار الذين يشار لهم بالبنان.

مرت السنين وفكر فارس أن يبحث عن أخيه الحبيب مرداس، فودع عياله وامتطى صهوة جواده وساح في الأرض يسأل عن أخيه، مرت أيام وأسابيع وأشهر وهو لا يكل ولا يمل، وفي يوم من الأيام وقد بلغ به التعب مبلغًا كبيرًا ونال حصانه الإجهاد والعطش دخل سوق المدينة وسأل عن طعام ومنام وسايس يرعى جواده ويعتني به، فقالوا له هناك وقفة الأغنام والخيول تسأل عن راعي الغنم مرداس، والتقى هذا الراعي وجلس معه يتجاذب أطراف الحديث، وتأكد له بالدليل القاطع أنه أخوه ابن أمه وأبيه، تعانقا وبكى أحدهما على كتف الآخر، وتذكرا أيام الصبا وأباهما وأمهما، وأجهشا بالبكاء.

سأل فارس أخاه مرداس: ما الذي أوصلك لهذا الحال يا أخي أصدقني القول؟

قال: من سوء حظي تزوجت امرأة طماعة جشعة لا ذمة ولا ضمير عندها ولم يحسن أهلها تربيتها، كانت هذه المرأة المارقة قسمتي ونصيبي، استحوذت على المال والحلال وبددته حتى أصبح حالنا بأسوء الأحوال فكما ترى أنا أرعى هذه الصخول الأربعة التي تعود لها.

اتفقا أن يذهبا لبيت مرداس على أن لا يقول فارس ولا مرداس أنهم إخوان لأن مرداس يخاف من زوجته.

طرقا الباب، فصاحت: من الطارق ؟

قال مرداس: أنا، ومعي ضيف.

زمجرت وعربدت وشتمت وهددت وتوعدت، بعدها فتحت الباب وهيَّ تهمهم وتدمدم، فأعطاها فارس ليرة من الذهب فهدأت سرائرها وفرشت لهم فراشًا، فأعطاها ليرة ثانية وأمرها أن تعد لهم الطعام.

وبعد أن ارتاحا وأكلا وشربا، قال فارس: إن عندي عملاً لزوجك وسيرافقني حيث أعيش وسأجعل منه رجلاً ناجحًا في حياته.

خرجا الأخوان إلى السوق وذهبا إلى الحمام بعد أن اشترى لأخيه هندامًا جديدًا وجوادًا أصيلاً وحسامًا، وأقفلوا راجعين لديارهما.

مرت ليالٍ وأيام، وفي الطريق مروا بمزرعة رقي فاشترى فارس واحدة، وبعد حين وصلا الدار. ولما علمت زوجة فارس هلهلت وكبرت ورحبت بزوجها وبضيفه الغالي العزيز عمّ أولادها، غسلت أيديهما وأرجلهما وهيَ تحيي وتفيي.

نادى عليها فارس: يا زوجتي الغالية.

فردَّت عليه: أنا فداك.

قال: قدمي لنا الرقية نَتَلهى بها لحين إعداد الطعام.

وماهي إلا لحظات وقد قدمت الرقية في صينية وبجانبها صحن وسكينة وفوقها منشفة.

مسك فارس الرقية وطبطب عليها وصاح بها: يا امرأة بدلي هذه بأخرى أحسن منها.

قالت: حاضر.

وأخذت الصينية ومابها بودلت الصينية والماعون والسكينة والمنشفة وقدمتها.

وطبطب فارس وصاح هذه الاخرى غير جيدة نريد غيرها...

وهكذا خمس مرات تبدل الزوجة كل اللوازم ماعدا الرقية لأنه لايوجد غيرها دون أن ترد بكلمة واحدة من فرط أدبها وحيائها وحبها واحترامها لزوجها أمام أخيه الضيف.

انتبه مرداس وقال لأخيه يا فارس نحن اشترينا رقية واحدة وحسب علمي بلدنا لا يوجد فيه رقي في مثل هذا الوقت من السنه، وإني أرى نفس الرقية تروح وترجع ما الأمر يا فارس؟

قال: يا مرداس زوجتي من حيائها وأدابها وحسن تربيتها لا تجرؤ أن تردني حتى لو كررت الأمر مائة مرة.

اندهش مرداس وقال لأخيه: بربك أصدقني ماذا فعلت لها لتطيعك كل هذه الطاعة وتحترمك كل هذا الاحترام؟

قال فارس: اسمع يا أخي مرداس، وتعلم من أخيك الصغير:

أنا اخترت زوجتي من عائلة كريمة معروفة بطيبتها وسمو أخلاقها، كان لوالدها مضيف فاستضافني سبعة أيام ورأيت أن هذا المضيف العامر تديره بكل اقتدار زوجته وتراعي وتداري الضيوف وكأنهم إخوانها، وشاهدت يا أخي حجم الاحترام والتقدير لزوجها بحيث لا يمكن أن ترد له طلبًا أبدًا، ولهذا تقدمت لطلب الزواج من إحدى بناته لأن المثل العراقي يقول (امسك الوردة وشمها تلقى البنت طالعة لأمها)، أو كما يقول المصريون (اقلب الحلة على فُمها تلقى البنت طالعة لأمها). ومع هذا يا أخي في ليلة الدخلة، أردت تجربتها، فقلت لها يابنت الحلال غدًا صباحًا نذهب بجولة للصيد والقنص وأحب أن ترافقيني، فقالت سمعًا وطاعةً، وهكذا كان أردفتها على فرسي وذهبنا نذرع أرض الله الواسعة إلى أن اعترض طريقنا نهر ماء جاري عريض، فوقف الفرس وأراد أن يسقطني وإياها من على ظهره، فزجرته وشددت من لجامه ولكنه أبى العبور، فترجلت واستليت سيفي وأقسمت إن لم يعبر النهر قطعت رأسه فأبى فضربت عنقه وجئت لها والسيف يقطر دمًا وأقسمت عليها إن لم تعبر هذا النهر سأقطع رأسها بهذا السيف، فجرت ورمت نفسها بالنهر، وأخرجتها بأخر نفس.

وهكذا منذ زواجي منها وكما ترى لا تعصي لي أمرًا أبدًا.

ولهذا أطلب منك يا مرداس أن تبقى معنا ونزوجك إحدى أخواتها لتعيش مرتاحًا سعيدًا بدون هم ونكد.

راوية قد ربَّاها أبوها وعلَّمها ألا تُخفي عنه شيئًا، فحكت لأبيها أنها وسوسن كل ليلة تسترقان السمع من خلف المضيف وتسمعان حكاوي القصخون.

زعل سيد عكَلة على ابنته راوية وقال لها:

- لا يصح هذا يا راوية ألم تتعلمي أن التصنت من خلف الأبواب حرام ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾، أرجو عدم تكرار ذلك.

- أمرًا وطاعةً يا أبتِ.

(٢٤)

نعود إلى دكتور جلال في بغداد، ونعيش معه مأساته التي لا تقلّ عن مأساة سوسن، وأنا لا أعلم من خلق هذه المأساة جلال أم سوسن أم كلاهما؟

جلال تزوج قبل أن يعرف سوسن، وظروف الحرب قادته مرغمًا إلى مصيره هذا، وتعرَّف بالصدفة بالممرضة سوسن التي أنقذته وأحبته وهو في وضع لا يُحسد عليه بين الموت والحياة، وأقلها أن يفقد نور عينيه. وهو أحبها قبل أن يراها، وعندما أمسك يدها بعد العملية أحس برعشة وتيار سحري هزّ كيانه كله وأحس بحرارتها وأن الحياة بدأت تسري من روحها إلى روحه، ولولاها ربما هو الآن بصير لا يرى النور.

لقد بعثها له ملاك رحمة لإنقاذه، وبعث الحياة فيه بعد أن كان الموت أقرب إليه من حبل الوريد وأقله العمى... لكن ما ذنبه لتعاقبه سوسن كل هذا العقاب القاسي وهو بأمسِّ الحاجة لها، وبعد أن بنى آمالاً كبيرة بأن يكوِّن أسرة سعيدة وتعيش أخته نادية الذكية الجميلة وسطهم.

فجأة تبخر كل شيء وضاعت الآمال بسبب هذا الملعون عباس...

– والله أنا عرفتُ عندما كنت في البصرة أن كل أهلي ومعهم زوجتي وابني ماتوا في القصف ولم يبقَ لي غير أُختي نادية

هذه، فقلتُ مع نفسي لماذا أُثير المواجع وأنبش في الماضي وأُعذِّب سوسن معي ومع ذكرياتي الأليمة، ولهذا لم أُخبرها بذلك، ما لها ومال الماضي؟ هل أنا سألتها يومًا عن ماضيها وعن حياتها السابقة وعن أهلها وذويها ؟

دائمًا يُحدِّث نفسه ويعاتبها ويُفكِّر لعله يجد مخرجًا لمأساته هذه.

استأجر جلال بيتًا وأتى بأخته من عند الممرضة سلمى بعد أن شكرها وأثنى عليها. طلبت منه سلمى أن تزور نادية بين الفينة والفينة لتطمئن عليها فقال لها: البيت بيتك وأهلاً وسهلاً بكِ في أي وقت.

سلمى تُمنِّي النفس أن يكون دكتور اجلال من نصيبها؛ رغم اختلاف الدين؛ ولكن بالنسبة لها ليس هناك مشكلة تحول دون ذلك، فهي تحترمه وتحب أخته كثيرًا، وتتمنى أن يُكتب لها قسمة الزواج منه.

ولكن جلال في وادٍ آخر. لا يعرف ماذا يفعل ليصل إلى سوسن، يكاد يطير برج من عقله من كثرة التفكير والبحث والسؤال، ومستعد أن يدفع نصف عمره مقابل معلومة بسيطة عنها...

- يا إلهي، ماذا أفعل؟ وكيف أهتدي إلى مكانها؟ وماذا فعلتُ لأتحمل كل هذا العذاب في فقدان أهلي وفقدان حبيبتي. أرجوك يا إلهي ساعدني وازرع الرحمة في قلب سوسن لتعود لي أو لتتصل بي لأطمئن عليها وأعتذر منها، وأنا

متأكد أنها ستسامحني لأنها تحبني، قلبي يشعر بهذا، وقوة عارمة بداخلي تشدني إليها وأكيد مثل هذه القوة في قلبها... سأحاول البحث مرةً ثانيةً وثالثةً ورابعةً، إلى أن أجدها، فأنا لا أستطيع العيش بدونها، يستحيل الحياة بدونها، ليس لي سواها، فساعدني يا إلهي فأنا عبدك المسكين أتضرع إليك لأنك على كل شيء قدير.

سيطرت عليه الحيرة، وتعب عقله من التفكير، ولم يبقَ أمامه سوى الدعاء والصبر على بلواه، لا يعرف من يسأل بعد أن سأل كل الناس، لا يعرف أين يذهب بعد أن ذهب إلى كل مكان يعتقد أن هناك احتمالاً ولو ضعيفًا ليسمع شيئًا عن سوسن.

نصحه أحد الأصدقاء أن يذهب إلى السيد ليقرأ له الطالع، ولكنه طبيب ولا يؤمن بهذه الخزعبلات ويعتبرها نوعًا من النصب والحيلة، ولكن مع عدم قناعته ذهب مع صديقه وقال مع نفسه: إنها مثل دواء العرب؛ إذا ما ينفع فهو لا يضر.

وعندما استمع إلى هذا الدجال ضحك على نفسهِ وقال: لو كان هذا الدجال يملك قدرات؛ لما كان حاله مثل هذا الحال البائس، لا حال ولا مال ولا سكن يليق بإنسان. ولكن مع هذا الله يجعل سره بأضعف خلقه.

جلال بالرغم من همومه الثقيلة فهو طبيب مجتهد مخلص في عمله يعمل في المستشفى ليل نهار ويقرأ كثيرًا ليطور معلوماته الطبية، ويتابع مرضاه وحتى يزورهم

في بيوتهم ليطمئن عليهم، فأصبحت له شهرة ومحبة بين الأطباء والممرضين والناس، فاستدعاه مدير الصحة وقدَّمه للسيد وزير الصحة لينال جائزة أكفأ طبيب ممارس في يوم الصحة العالمي، وأمر السيد الوزير بإرساله في بعثة دراسية للحصول على شهادة FRCS التخصصية في الجراحة من لندن، لكن جلال اعتذر قائلاً:

- إن ظروفي العائلية الحالية لا تسمح لي بالسفر، ولو أمكن أن تساعدوني في القبول للحصول على البورد العربي بالطب هنا في بغداد؟

فوافق الوزير على الفور وأعطاه منحة مالية كانت كافية لشراء بيت بسيط في مشاريع الدولة الاستثمارية في وزارة الإسكان والتعمير.

(٢٥)

الممرضة سلمى تكرِّر زياراتها إلى نادية، وُتمنِّي النفس أن تلتقي بدكتور جلال لتوطد العلاقة معه وتطورها عسى ولعل أن تشبك السنارة ويكون من نصيبها.

حاولت التقرُب والتحبُب إلى نادية لغرض الوصول إلى قلب جلال، ولكن دون فائدة تُرتجى، لأن جلال قفل قلبه بالضبة والمفتاح ودقاته تقول: سوسن، سوسن، سوسن... لا شيء في حياته غير سوسن وعمله الإنساني كطبيب والعناية بأُخته الشاطرة الذكية الأولى على المدرسة باستمرار.

تمر الأيام والأُشهر والسنين، وجلال وسوسن كل منهما يعيش معاناته القاسية... ما أقسى النساء، فقد كان بمقدورها أن تسامحه إكرامًا للحب الطاهر الذي جمعهما...

وهذا يُذكِّرني بحكمة حكاها أحد الحكماء؛ أن حربًا اشتعلت أوزارها بين ملكين من ملوك أيام زمان، فقال الأول للثاني: سآتيك بجيش مقاتلوه قلوبهم قلوب أُسود، فردَّ عليه: وأنا سأقابلك بجيش مقاتلوه قلوبهم قلوب النساء. فلم يعجب الوزير ردّ الملك، فقال الملك له: إن قلوب النساء أقسى من قلوب الأُسود ويمكنك أن تجرِّب ذلك.

نادية تعلقت بالممرضة سلمى حتى ظنت أنها أُمها، وأحيانًا كثيرة تأخذها معها إلى بيتها عندما يكون جلال

مشغولاً بعمله ودراسته وخفاراته ومرضاه وما أكثرهم... ومثلما شاعت شهرة سوسن في الفهود وما جاورها من قُرى، شاعت شهرة جلال في بغداد.

لا تكلُّ سلمى ولا تملُّ من التقرُب إلى جلال، وتحاول جاهدة أن تدخل قلبه وبأي ثمن، وأن تعوّضه عن حُب سوسن الذي ملأ كيانه وشغل عقله، وهي تدرك أن المشكلة كبيرة ومعقدة، ولكنها قررت أن تحاول وأن تبدأ بإقناع جلال بتجاوز مشكلة اختلاف الدين وأن الله واحد والكل عباد الله.

كانت تحاول استثمار نادية وحُب جلال لها، وفي أحيان كثيرة تتعمد انتظاره ومناقشته في أمور كثيرة بعد أن تساعد نادية في ترتيب البيت وإعداد وجبة الطعام التي يحبها جلال.

رحَّب جلال بسلمى وشكرها على كل ما تقدمه لأخته نادية ومساعدتها في أعمال البيت، ورجاها أن تشاركهما طعام العشاء، ثم دعاها لشرب الشاي في الهول، فيما انسحبت نادية لغرفتها لإكمال واجباتها المدرسية.

تُبادره سلمى:

- المفروض أن الدين يجمع ولا يفرِّق، فالله واحد ونحن جميعًا عباده؛ وإن اختلفت الممارسات، لأن التعاليم واحدة والوصايا واحدة والانبياء والكتب السماوية مصدرها واحد.

- هذا كلام صحيح وجميل، وأنا شخصيًا مقتنع أن الدين يرتكز على مرتكزين أساسيين، المرتكز الأول: الإيمان بالله الحي العظيم، رب الناس أجمعين بالمطلق واحد أحد لا

يشاركه في ملكه أحد وليس له والد ولا ولد، انبعث من ذاته، أزلي ليس له بداية، وسرمدي ليس له نهاية... المرتكز الثاني: التمسك بمكارم الأخلاق الموجودة أصلاً قبل الأديان والتي جاء الدين لتعزيزها وترصينها... أما الشعائر والطقوس والموروثات فهذه من صناعة البشر، جاء بها رجال الدين الأفاضل كوسيلة ومع الزمن جعلوها غاية، ثم أعطوها القُدسية وأضافوها إلى الدين فعقَّدوه وضخَّموه وأثقلوه، مما تسبَّب في عزوف الشباب عن التمسك بكثير من مفاهيم الدين.

هناك نوعان من الناس يا سلمى، ومن ضمنهم رجال الدين الأفاضل. النوع الاول: الأصوليون المتزمتون الذين يعتبرون الشعائر والطقوس والأحكام والموروث هي أصل الدين وأنها قادرة على حَلّ كافة مشاكل الإنسان، وفِي الحقيقة إن الحي العظيم والإنسان هما أصل الدين لأنهما سبقا الدين، وما علينا إلا حب الله وحب الإنسان لأنهما الأصل. ويجب زرع الايمان في قلب كل إنسان لأن الايمان ينبعث من القلب ولا يُفرض فرضًا لكونه ملازم للحرية وللأخلاق السامية، لأن الحرية والأخلاق جوهر الإنسان... والنوع الثاني: المتنور الذي يفعِّل العقل والمعرفة والوجدان، المؤمن بالتطور والحداثة ومواكبة العصر الحديث واحترام عقول الناس والعلم والمعرفة.

يجب أن نعرف ان الشعائر والطقوس والأحكام والموروث هي مظهر من مظاهر الدين، وكثير من هذه الأحكام يجب أن

تتغير بتغير الزمان والمكان حتى لا يُصاب الدين بالجمود، وعليه يجب أن تفسَّر النصوص وفق تطور الحياة لتواكب تطور المجتمعات البشرية لأننا لا نستطيع أن نوقف تطور الحياة في العصر الحديث، المهم الايمان بالحي والإنسان وتطوره وتمسكه بأخلاقه وإنسانيته وسيره في طريق الحق والبحث دائمًا عن الحقيقة والدفاع عنها.

- عظيم يا جلال، كلام يثلج الصدر ويطيب الخواطر، وأنا سعيدة أن أسمع منكَ هذا الكلام الجميل، فقد قصَّرت عليَّ المسافة. وأنا أضيف لحديثك الراقي هذا شيئًا من قناعاتي وثقافتي التي تعلمتها من أهلي ومن خلال ترددي على الكنيسة، أن الظروف التاريخية والأحداث والحاجة فرضت على الناس عبر تاريخهم الطويل كثيرًا من الموروثات والإجراءات، وهذه أمور عرضية فرضها الزمان والمكان في حينها، ولكن بتغير الزمان والمكان وتغير الظروف تتغير كثير من هذه الموروثات التي أصبحت لا تتلاءم مع العصر الحديث وعقلانية الناس وخاصة الشباب، إذ لا شيء بالإكراه. ولنأخذ مثلاً عندما كان أهلنا وأجدادنا يعيشون بالهور في الزمن السابق؛ اعتمدوا كثيرًا على القصب والبردي والطين في تشكيل كثير من شعائرهم الدينية وحتى في بناء بيوتهم، إذن يجب أن نتصرف بعقلانية ووفق الحرية التي تفرضها الحضارة والحداثة والتطور، ونستفيد من وسائل التطور الحديثة في الاتصالات والإنترنت والإعلام والبحث عن الحقيقة أينما توجد، إذ يجب ألا تكون عقولنا مخزنًا نخزِّن

فيه الأشياء بما قاله الأجداد. علينا أن نحترم عقولنا ونفعِّلها لأنها أكثر تطورًا من عقول أجدادنا، وليس كما يعتقد البعض أن أجدادنا هم الأذكى في التفسيرات الدينية.

– نعم، أحسنتِ يا سلمى، والله أنا أمام فيلسوفة. صدقتِ، فالدين يجب أن يكون في خدمة الناس لإعطاء معنى للحياة ورفع المعنويات وحب الله والإنسان لتحقيق الراحة النفسية وإبعاد القلق والخوف وتحقيق السكينة والطمأنينة والحب بين الناس، وتسهيل أحكام الدين وشعائره وتبسيطها.

– نعم... نعم يا جلال، فالدين هو حُب الحي العظيم، والإنسان هذا الأساس المقدس، أما الفكر الديني؛ وأعني الشعائر والطقوس والأحكام والموروث؛ فدائمًا ناقصة وتحتاج إلى تطوير وحداثة ويجب أن تواكب تطور الإنسان والمدنية الحديثة، وعلينا أن نحرِّر عقولنا من الموروثات التي لا تتلاءم مع العصر الحديث، فرجال الدين الأفاضل وأجدادنا الكرام كانت موروثاتهم وأحكامهم في زمنهم صحيحة، ولو بُعثوا الآن لتغيرت هذه المفاهيم، فكثير من العادات والأعراف والموروثات تحولت إلى شرع ديني لا ينسجم مع العصر الحديث، فأنا في رأيي أن الدين واحد والحضارة الإنسانية واحدة ولكن الثقافات تختلف من مكان إلى آخر.

– كلامك دقيق يأ سلمى، ولهذا الدين يجب أن يكون في خدمة الإنسان لأن العقل البشري تكفل بالحقوق والقوانين

والاقتصاد والعلوم والتطور في شتى مجالات الحياة، ولهذا يجب أن تُصحَّح تفاسير بعض النصوص الدينية للشعائر والطقوس والأحكام والمفاهيم لتواكب تطور الإنسان وتسهل مناحي الحياة وتسعد الناس. وعلينا أن نفهم ان أي دين سيضعف مع الوقت بدون عقلانية واحترام تطور العقل البشري لأن الدين يجب أن يكون في خدمة الإنسان ويسهل أموره الحياتية ويزرع الايمان والمحبة في قلبه لأن الله ينظر إلى القلوب العامرة بالحب.

- والله أنتَ فرحتني بكلامك هذا وفهمك للدين، وهذا يعني أن كلانا حالة واحدة نؤمن بالله وبالقيم والأخلاق والوصايا وليس هناك بيننا إلا خط رفيع يمكن تجاوزه، وأنتَ تعرف مقدار احترامي وتقديري لكَ وحبي لنادية، وأترك تقدير الأمور لكَ، والخير ما اختار الله، استودعك الله وتصبح على خير، وأي خدمة أو مساعدة تحتاجها أنتَ أو نادية؛ أنا بالخدمة وعن طيب خاطر.

- شكرًا يا سلمى. وعلى فكرة سلمى يوم الاثنين عندي مؤتمر طبي لمناقشة واقع التمريض في العراق وسأكون مشغولاً من الصباح حتى المساء.

- وكذلك أنا يا دكتور مدعوة لهذا المؤتمر، أم نسيت أني ممرضة لها اسمها وسُمعتها في مجال التمريض؟ وعمومًا اطمئن أنا حضرت الطعام لنادية وليس هناك أي مشكلة.

– شكرًا وألف شكر يا سلمى. كيف أستطيع أن أوفِّي أفضالك عليَّ.

– نحن أهل يا جلال، ونادية أُختي مثلما هي أختك. وداعًا يا دكتور، مع ألف سلامة.

(٢٦)

اليوم الاثنين... وقد بدأ المؤتمر الطبي الساعة العاشرة صباحًا، وقدِّمت عدة بحوث ودراسات. وكانت إحدى الباحثات د. نيفين زوجة دكتور منير إخصائية الولادة وزراعة أطفال الانابيب...

وأثناء بحثها تطرقت إلى أهمية التمريض والكادر التمريضي وضرورة إعداد كوادر تمريضية متقدمة تملك الخبرة والكفاءة، وضربت مثلاً بممرضة اسمها سوسن محمود عبد العال من أهالي البصرة تعمل مع زوجها الدكتور منير عبد الاحد في أهوار الجنوب، تملك من الخبرة والكفاءة والدقة ما يعجز عنه الوصف، وكيف تجري العمليات البسيطة وكيف تخيط الجروح وكأنها ماكينة سنجر لا نظير لها في دقتها وسرعتها ومهارتها... وأنهت حديثها بالتطلع إلى أن تكون الممرضات بهذا المستوى من الكفاءة.

دكتور جلال أصابه الذهول، ومرَّت عليه لحظات لا يعلمها الا الله. وبمجرد انتهاء محاضرة الدكتورة نيفين كان الدكتور جلال في وجهها:

- دكتورة الله يحفظك ويخليكِ، من أين تعرفين سوسن؟

وهنا سارع الدكتور منير للتدخل وطلب منهما الذهاب إلى الكافيتريا للحديث.

كان جلال يرتعش وقد فاضت عيناه بالدموع:

– أرجوكِ دكتورة، اسمها سوسن محمود عبدالعال من أهالي البصرة قلتِ هذا، إنها متوسطة الطول واسعة العينين تشبه إلى حد بعيد صورة بطلة دافنشي موناليزا، تؤدي عملها بيدها اليسرى دائمًا؟

– نعم...نعم هذا صحيح، ومن أين تعرفها؟

– إنها خطيبتي، إنها حبيبتي، إنها حياتي ومستقبلي.

هنا تدخل دكتور منير:

– على مهلكِ دكتورة نيفين... زوجتي عرفتها من خلالي، الممرضة سوسن كانت تعمل معي في عيادتي.

– وأين عيادتك هذه يا دكتور؟

– أخي على مهلك العافية درجات، ولمعلوماتك هي لا تريد أن يعرفها أحد، ولم تحكِ لنا أي شيء عن حياتها الخاصة، وكل المعلومات تعرفها صديقتها المقربة منها المعلمة راوية بنت سيد عكَلة.

– أرجوك دكتور منير لا تُعقِّد عليَّ الأمور، قل لي بربك أين أجد سوسن الآن؟

– إنها في ناحية الفهود.

– وأين ناحية الفهود هذه؟

– إنها في الناصرية، تقع على حافة هور الحمار بين قضاء الچبايش وقضاء سوق الشيوخ.

– وكيف أصل إلى ناحية الفهود هذه؟

– يجب أن نساعدك في الوصول إلى هناك.

– وماذا تنتظر يا دكتور؟

– صبرك بالله، الصباح رباح، وغدًا ننطلق أنا وأنت في سيارتي إلى هناك، ويصير خير.

– أنا يا دكتور لا يمكن أن أتركك ولو لحظة واحدة، رجلي على رجلك، وأرجوك أن تتحملني وتسامحني، لأنك لا تعرف النار التي تسعر داخلي. فأرجو أن تسمح لي الليلة أن أنام في سيارتك.

– يا دكتور الناس لبعضها، وأنت أخ عزيز، واعتبر نفسك ضيفي وصديقي، وسأقدِّم لك كل ما أستطيع.

دكتورة نيفين مستغربة مما يحدث... وسلمى تراقب الأمور من على بُعد، وفي اعتقادها أن دكتور جلال وجد أهله أو أقرباءه وانشغل معهم، رغم أنه لم يعرِّفها بهم ولم يسأل عنها، وقد جاءا إلى المؤتمر معًا ومن المفترض أن يعودا معًا، ولكن جلال انشغل عنها.

جلال يلحظها من على بُعد، فينادي عليها، فتأتي إليه مُسرعة، وهو في وضع لا يُحسد عليه...

– ما الأمر يا جلال؟

– لقد وجدتُها.

– ماذا وجدت ؟

– وجدتُ سوسن.

– أين وجدتها؟

– في مكان من مدينة الناصرية، وغدًا صباحًا أنطلق برفقة دكتور منير هذا إلى هناك. أرجوكِ خذي بالك من أُختي نادية وخذيها عندك في البيت، الله يخليكِ.

سلمى في ذهول وحيرة ولا جواب عندها سوى كلمة حاضر.

– حاضر يا دكتور، اطمئن، سأهتم بنادية، حاول أن تتصل بي وتُطمئنني عليك.

– حاضر يا سلمى.

(٢٧)

لم ينم جلال ليلتها وهو ضيف عزيز في بيت دكتور منير، حاول دكتور منير وزوجته دكتورة نيفين استدراجه للحديث ولكنه في عالم آخر لا يسمع إلا صوت سوسن ولا يرى إلا صورة سوسن وهو في ذهول، وبين الحين والآخر يذهب إلى الحمام يغسل وجهه ويحمد الله ويشكره، ولكنه مازال قلقًا، يتمنى لو يستطيع تحريك دوران الساعة وتنقضي هذه الساعات التي أصبحت دهرًا...

- يا إلهي، لماذا الوقت يمر هكذا بطيئًا؟ ولماذا لا تسرع الأرض بالدوران؟

لم يتناول شيئًا من الإفطار سوى الشاي. وفي الثامنة إلا ربع اخذ منير برفقة جلال زوجته ليوصلها إلى عملها في المستشفى، ثم انطلقا منير وجلال بالسيارة إلى الناصرية ومنير يفرك عينيه من قلة النوم وكثرة الإجهاد النفسي الذي سبَّبه له جلال.

وبعد ثلاث ساعات مرَّت على جلال كأنها دهرًا؛ تعطلت السيارة في منطقة تل اللحم بسبب ارتفاع درجة حرارة السيارة، فقرر دكتور منير إصلاحها في سوق الشيوخ القريب ومن ثم مواصلة الطريق... سلَّم السيارة إلى المصلح الذي قال له إنها تحتاج وقت لتنظيف الراديتر وإصلاح الصمام

وتبديل مرسلة الحرارة، فاصطحب جلال وذهبا إلى أقرب مطعم للراحة وتناول الغداء.

وصلا إلى ناحية الفهود عند المساء، فوجدا أن مضيف سيد عكَلة مكتظ بالناس على غير العادة، وهناك صراخ وعويل وحركة غير طبيعية في ناحية الفهود.

دكتور منير في دهشة:

- ما الذي يحدث؟

توجه برفقة دكتور جلال إلى المضيف، فوجد سيد عكَلة وقد لفَّ رأسه بكوفيته العربية الزرقاء، وهو يكفكف دموعه بأطراف أصابعه ويبدي تجلدًا، ولكن أحيانًا يخونه تجلده فيصدر منه نشيج بالبكاء المكتوم الذي يحاول ستره بغترته الزرقاء التي لفَّ رأسه ووجهه بها بقوة... وسمع عويل نسائه في بيته المجاور للمضيف، والنساء المتشحات بالسواد وهن يترددن على بيت سيد عكَلة. فعرف أن حادثًا جللاً قد حدث.

- خير سيدنا؟

- أي خير دكتور؟! لقد غرقت بنتنا سوسن في النهر الجاري وسحبتها السويرات الدوارة القوية إلى قعر النهر، وفشلت كل الجهود في إنقاذها مع الطالبة التي غرقت سوسن بسببها.

- أتقصد سوسن الممرضة؟

- نعم دكتور، سوسن الممرضة.

– وكيف حدث هذا؟

– ، دكتور أنا لا أقوى على الحديث، ابنتي راوية كانت معهما وهي تحكي لكم القصة بالتفصيل.

يقف دكتور جلال في ذهول مطبق وقد خارت قواه ولم يقوَ على الوقوف وهو غير مصدق ما يسمع...

معقول أن الله لا يحبه إلى هذا الحد؟ هل معقول أن الله ظالم وهو أرحم الراحمين؟ وبعد كل تلك المعاناة والصبر والهم ضاعت سوسن ولن أراها، ما هذا الظلم يا الله؟

دقائق قليلة وسيد عكّلة يستدعي ابنته المعلمة راوية ويقول لها:

– هذا دكتور منير تعرفينه، وهذا قريب سوسن، اشرحي لهما ماذا حصل.

راوية تسأل جلال:

– ماذا تكون من سوسن؟

– أنا خطيبها دكتور جلال.

اندهشت راوية وقالت:

– أنتَ جلال الذي تلهج باسمك سوسن وصورتك لا تفارقها لحظة واحدة؟

– نعم، أنا جلال.

بكت راوية بُكاءً مُرًا وقالت:

– إنها أُختي التي لم تلدها لي أُمي.

– إنها حبيبتي، أرجوكِ أين سوسن؟ قول لي أين أجدها؟

– مدرستنا الابتدائية منذ فترة تخطِّط لرحلة إلى مدينة البصرة لزيارة كورنيش شط العرب الجديد وجسر خالد، وأنا أقنعت سوسن أن تذهب معنا كضيفة عزيزة لأن كل المعلمات صديقاتها، فوافقت. وفي الصباح عبرنا على دفعتين بواسطة زورق رزاق النهر السريع فوجدنا الباص بانتظارنا ليأخذنا إلى قضاء الچبايش، ومن ثم عبرنا الهور بالزورق الكبير أي بالسفينة إلى مدينة المْدَيْنة على الجانب الآخر من الهور، وأنا لا اعرف لماذا كل هذا التعقيد لكن المعلمات أحببن هذا الطريق لجماله...

قاطعها جلال وهو يرتعش:

– يا أخت راوية لا تهمني التفاصيل، بربك قولي لي أين سوسن؟

– يا دكتور اسمعني أرجوك... وصلنا إلى العشار وذهبنا لتناول الطعام في مطعم على شط العرب في شارع الكورنيش واستمتعنا كثيرًا، ثم عدنا بنفس الطريق وناديا على البلام رزاق ليعبرنا إلى الجانب الآخر ناحية الفهود... ونحن في وسط النهر السريع تحركت إحدى الطالبات واسمها منى وهي كثيرة الحركة من مكانها في يمين الزورق إلى الجانب الأيسر فأهتز الزورق ومال، فسقطت منى في المياه الجارية السريعة وتلقفتها السويرات وهي تدور مع عين الماء تنزل وتصعد، وبرمشة عين رمت سوسن نفسها لإنقاذها، ولكن

السويرات ابتلعت سوسن معها ولم ينفع صراخنا ودعواتنا، وخاف رزاق على البقية بتشبثه بالسلك الفولاذي الذي يربط جانبي النهر السريع... نحن نجونا، وإلى الآن لا اثر لسوسن والطالبة منى.

جلال مازال في ذهول لا يعرف ماذا يقول وماذا يفعل ويتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم وقع مغشيًا عليه، فسارع دكتور منير إلى الطبطبة على خده وإجراء التنفس الاصطناعي له، حتى فتح عينه وهي تفيض بالدموع.

بات جلال ليلته مع دكتور منير وسيد عكَلة وعدد من الرجال في المضيف، يشربون القهوة؛ لا شيء غير القهوة، الكل في حزن يعتصرهم الألم، إلى أن انبلج ضوء الصباح وأخذت جيوش الضياء تطارد فلول جيوش الظلام، وكبَّر الجامع يدعو الناس للصلاة.

وبين رغاء الأبقار وصياح الديكة ونباح الكلاب؛ جاء المنادي من الهور يُعلن بصوت جهوري، أن الصيادين قد عثروا على جثتي سوسن ومنى عائمتين بين القصب والبردي في وسط الهور.

أمر السيد عكَلة بنقل الجثمانين إلى الجامع للصلاة عليهما، بعدها نقلهما إلى النجف الأشرف لدفنهما في مقبرة السلام بجوار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

انتفض دكتور جلال صائحًا:

- لا، لا، أنا أريد أن أرى سوسن ليطمئن قلبي، وأريد منك يا سيد عكَلة أن تُعلن أمام الله وأمام الناس أن سوسن محمود عبدالعال زوجتي على سُنة الله ورسوله، وأرجو أن تسلموني خطيبتي سوسن بعد أن تصبح زوجتي ليكون مرقدها قريبًا مني في مقبرة الشيخ معروف في بغداد لأتمكن من زيارتها وبناء جامع بسيط ضريحًا لها، أرجوكم ساعدوني وإلا قتلت نفسي الساعة، والله والله سأرمي نفسي في النهر السريع لتبتلعني المياه كما بلعت سوسن، والله فكرت في الأمر لولا أُختي نادية من لها بعدي، ولولا أن قتل النفس حرام، ولكن كتب الله عليَّ أن اعيش مع الهم...

فتذكرت المعلمة راوية حكاية الهم التي سمعتها مع سوسن وهي تتمتم مع نفسها:

﴿ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴾.

المؤلف في سطور

- د. بشير عبد الواحد يوسف.
- عالم ومفكر وأديب عراقي ، مقيم حاليًا في السويد.
- وُلِد في مدينة العمارة (محافظة ميسان) عام 1943م، وانتقل مع عائلته في نفس العام إلى مدينة البصرة وأكمل دراسته الإبتدائية والمتوسطة والإعدادية في مدارسها.
- حصل على الشهادات:

1. بكالوريوس هندسة طيران.
2. ماجستير هندسة طيران.
3. دكتوراه علوم سياسية.
4. دكتوراه دراسات مندائية (أديان مقارنة).

- صدر له عدة كتب علمية وفكرية وأدبية، منها :

1. بناء هيكل الطائرات ومنظوماتها.
2. بناء محرك الطائرات النفاذة ومنظوماتها.
3. صيانة الطائرات النفاذة ومنظوماتها.
4. رئيس اللجنة المشرفة على ترجمة الكتاب المقدس لطائفة الصابئة المندائيين (الكنز العظيم).
5. حكايات صغيرة (من حكايات الشعوب). مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة 2016.

6. الموسوعة المندائية /1 – الصابئة المندائيون بين الإنصاف والإجحاف: مؤسسة شمس للنشر والإعلام، 2017م

7. الحب الحقيقي : رواية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام ، 2018م

8. الموسوعة المندائية / 2 – الصابئة المندائيون / دائرة معلومات موجزة : مؤسسة شمس للنشر والإعلام ، 2018م

9. رضاب : رواية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام ، 2019م

10. الفريضة : رواية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام ، 2019م

11. يا ناردين هذه هي الحياة : رواية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام ، 2020م

12. حكايات لها معنى : مؤسسة شمس للنشر والإعلام ، 2020م

13. الموسوعة المندائية / 3 : الماء – الضياء – الحياة. مؤسسة شمس للنشر والإعلام ، 2021م

14. ومن الحُب ما قتل: رواية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، 2023م

شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net